جان غيتون

الفكر والحرب

ترجمة : المقدم الهيثم الأيوبي - أكرم ديري

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الفكر والحرب

جان غيتون
مِن المجمع العلمي الفرنسي

الفكر والحرب

ترجمة

المقدم الهيثم الأيوبي   أكرم ديري

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧

الطبعة الثانية ١٩٨٨ م

مقدمة الطبعة الفرنسية

لم يكن المؤلف ليطبع هذا الكتاب بشكله الحالي لولا الحاحنا المتكرر. ولقد اضطررنا في مناسبات عديدة الى اقناعه بعدم التردد في نشره، وتغلبنا على تحفظاته في الامتناع عن الخوض في جدل يبدو أن الاخصائيين والفنيين من العسكريين هم الذين يملكون حرية الكلمة فيه. ولكن تبين لنا أن جرأة هذا الكتاب الذي ألفه أحد المدنيين عن الحرب وعن الفكر العسكري هي التي تعطى لمسألة الحرب بعدها الحقيقي، هذا البعد الذي يجعل مسألة الحرب تحتل مكانتها في الفكر الانساني.

وبالاضافة إلى ذلك، فقد حذرنا غيتون من عدم تجانس الكتاب، نظراً لأن أبحاثه كُتبت في تواريخ متفرقة، عندما اضطر في مناسبات متعددة الى الحديث عن الحرب وتحولاتها. .واعترضنا على الاعذار التي قدمها المؤلف. حول عدم تجانس الموضوعات واختلافها الزمني نظرا لضيق الوقت وضرورة نشر هذه الافكار بأسرع ما يمكن. وكان اعتراضنا على الأعذار نابعاً من اننا وجدنا، وسيجد القارىء معنا، بأن أهمية المحاضرات التي القاها جان غيتون في «المدرسة العليا للحرب» ودقتها، ووضوحها، تكفي للفت الانتباه وإثارة الرأي العام. حقا اننا مع المؤلف عندما نقول «بأن الزمن الحالي اصبح شحيحا بأوقات الفراغ، وهو لا يسمح بالتالي بانجاز أعمال كاملة».

وفي الوقت الذي كان فيه المؤلف يكتب الصفحات التي ستقرأونها حول موضوع الردع، والعمل النفسي، والاعلام المعبأ، واطلاقية المغنم، وهي آخر مراحل انتقال الحرب من ساحة المناورة الى الحقل المغلق للمناورات الداخلية، وقعت احداث ربيع ١٩٦٨ (ثورة الطلبة في باريس)، فاكتشف الفيلسوف فيها بعض أوجه التشابه.مع هذه «الميتاستراتيجية» التي أرسى أسسها في هذا الكتاب. إن ما يقوله المؤلف عن أثر العامل

الفردي، وتدخل الخيال، ودور الكلمة والفكرة المطلقة، وهذا التهديد المطلق الذي دخل لأول مرة في النزاع غير المسلح يظهر مدى امكانية تطبيق التحاليك التي قدمها جان غيتون على احداث الأيام التي نعيش.

مقدمة المؤلف

يعتبر ليدل هارت أن أضمن شكل من اشكال العمل التي يمكن ادراكها وتصورها، واكثرها فاعلية للانتصار على المدى الطويل، هو عمل الرجل الذي يقول الحقيقة دون لف أو دوران أو قيود أو تحفظات: ويسمي مثل هذا الرجل نبياً.

ويضيف ليدل هارت قائلا: مما لا ريب فيه ان عمل النبي يتعلق بعمل القائد، وان على القائد ان يكون استراتيجيا وفيلسوفا في الوقت ذاته. وهذا يعني أن على المسؤول أن يثبت اهتمامه بتجسيد ما اعتبره النبي حقيقة، وأن يطابقه مع الظروف، وأن يتقبل الشر الذي لا مناص منه. ولكن على حكمة القائد ان لا تضحي بالحقيقة على مذبح تسيير الامور دون فائدة مجدية للمصلحة العامة. ومن الافضل كما يضيف ليدل هارت: ان يُرجم القائد كما رُجم الانبياء لان «كل من اعتاد اخفاء الحقيقة بغية تسهيل العمل الفوري، انتهى الى فقدان قوة تفكيره وسلامته»[1]

ان ليدل هارت يعبر تعبيرا صادقا وقويا عما نقوله جميعا بصوت منخفض: ان العلم والتقنية والسياسة والاستراتيجية ليست الا وسائل لتقريب المرء من غرضه النهائي، وهو امتلاك الحقيقة، والتمتع بالسعادة، وهو ما كان يسميه الاقدمون «الحكمة». وقد كان التمييز قائما منذ قديم الازمان بين العلم والحكمة، فالعلم يقتصر على المعرفة بصورة شفافة، اما الحكمة فهي فن السعادة، لكنها السعادة التامة، والسمو رغم الآلام، والهدوء ورباطة الجأش في حالات الفشل. وبين العلم والحكمة يقف الفن، وهو مركب من العلم والحكمة، لانه الممارسة المستندة الى المعرفة.

---

(١) الاستراتيجية وتاريخها في العالم، ص ٣٣ من الترجمة العربية، ترجمة المقدم الهيثم الأيوبي. منشورات دار الطليعة بيروت.

ان فن الحرب تقنية تستهدف الخير رغم الألم الذي يسببه موت الالوف، لأن هدف الحرب هو انقاذ الشعب الذي يخوضها وتجنيبه الهزيمة الجذرية التي تتأتى من خسارة استقلاله. ولقد كانت الهزائم تعني في الماضي استعباد شعب بكامله، ليصبح آلة حيّة بيد الغالب، في الوقت الذي لم يكن فيه آلات ميكانيكية. ولم يتغير هذا المفهوم تغيرا اساسيا: فالهزيمة تعني ايضا سلب موارد البلد المهزوم، والانتقاص من حريته، الأمر الذي يعني في ايامنا ابادة تامة للشعب المغلوب. ولهذا فكثيرا ما مجدت الامم والشعوب المنتصرين والغالبين في الحروب.

وتضمنت الحرب دوما قسطا لا بأس به من التركيبات والمناورات والحساب، قبل العمل واثناء العمل نفسه. ونحن لا نمجد المنتصر لحظّه في الانتصار، ولا لشجاعته فحسب، بل نمجده ايضا لحيلته وذكائه. ولنقل: اننا نمجده لفنه المزدوج في الغلبة والاقناع. وحتى يستطيع القائد ان يحتق الغلبة، لا بد له ان يكون قادرا على التأمل والتفكير السليم، حتى ولو بدا لنا ان عمله رد فعل غريزي. واكثر صفات الاسكندر ونابليون إثارة للاعجاب، هي قدرتها الاساسية على تكوين الفكرة.

لقد مضى وقت طويل قبل ان تقتنع الشعوب بضرورة تمجيد رجل العلم الذي لم تكن ترى فيه هذه الشعوب في الماضي سوى مظاهر السحر والشعوذة. وكان من الضروري ان تفهم هذه الشعوب أخيرا انّ المعرفة تؤدي الى السعادة أو الشقاء. وقد حان الوقت الذي اصبح فيه رجل العلم يتمتع بالهيبة التي كانت مخصصة في الماضي لرجل الحرب، مؤسس السلالات الحاكمة التي كانت تشكل «الدول» القديمة.

وفي القرن الثامن عشر، عالج الاستراتيجيون،من امثال جيبير،الحرب كفكرة، أسوة بالسياسة والفنون والتشريع والاقتصاد والتعليم. وما زلنا حتى الآن أبناء هذا القرن المفكر والعاقل، والمدمر احيانا، لانه لا وجود لفكرة من الافكار اذا لم تهز الأسس من جذورها. ولكن من الغريب ان حروبا عديدة قد وقعت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وتقدم فيها العمل، وبدا وكأن الفكر ينوء تحت ثقل الحرب. وقد انقلب التعبير العسكري الذي يدعى «استراتيجية» واضطرب، عند بحث المسألة العاجلة التي تتضمن استخلاص الدروس من «الحرب الاخيرة» لاعداد حرب جديدة. واما الذين حاولوا السمو فوق مثل

هذا الهدف (وكان كلاوزفيتز اعظمهم بعد جوميني) فان الفلاسفة لم يستمعوا اليهم كما ينبغي. ورغم اهتمام فلاسفة القرن العشرين بالعلوم والاديان والفنون الجميلة، للتزود بالتجارب، والسمو بمستوى الرؤية لديهم، فاننا نجد انهم لم يهتموا بالاستراتيجية ابدا.

ولكن يبدو أن الامر لا يمكن ان يبقى بهذا الشكل في العصر الحالي. فقد اضطر كل من يهتم بالاستراتيجية، بسبب الطفرة الاستراتيجية التي سببها ظهور الردع النووي، الى مد انظاره نحو مجال عمل اكبر من مجال عمل الاسلحة وشؤونها الادارية، لتشمل نظرته احيانا مجالاً اكبر من مجال الصناعات الضرورية للحرب، وهو مجال اكبر اتساعا من السياسة. وأحس السياسي ورجل الاقتصاد والفيلسوف والرجل العادي بأنهم معنيون بالحرب المحتملة، ومن واجبهم الاهتمام بالاستراتيجية.

ان هذه العلاقة القائمة في العصر النووي بين الفكر والاستراتيجية، هي التي تشجعني على وضع هذا الحجر الصغير في البناء الذي يشيده الجهد المشترك لكل المفكرين، في سبيل مستقبل الجنس البشري.

ما هي الفكرة التي نستخلصها من هذه التأملات؟

نستخلص اولا ان وظيفة الفكر تزداد عند استخدام العنف. وان هناك ثورة تتحقق في هذا المجال، وانه لكي نتحرى بدقة معنى ما يحدث تحت بصرنا، علينا ان نتجاوز اختصاصات الحرب، والسياسة، والقانون، والاخلاق، وان نحاول رؤية الفكر الذي يمثل أساس العلاقات الداخلية لهذه الأشكال المختلفة للعمل، وان ننظر الى كل شيء نظرة شاملة واحدة وبسيطة.

كيف نميز المرحلة الحالية للنزاعات المسلحة؟

اننا نرى تطابقا قائما بين الاسطورة والحقيقة، أي أننا نرى، من جهة، شكلا جديدا للحرب هو استراتيجية من نموذج نفسي، يؤثر على اللاشعور البشري بالأساطير كما نرى من جهة أخرى شكلا مستحدثا للسلاح، يعتمد على قوى تركيب المادة وتجزئتها. وهو سلاح يختلف كلياً عما كنا نسميه سلاحا منذ ان وحد حجر القدح، والحديد، والنار. هذه هي المطابقة الهامة غير المتوقعة، وهذا هو حدث العصر.

ومن حسن حظ الجنس البشري، واصدقاء العقل، ان هتلر الـذي رفع الاستراتيجية العقائدية الى مستوى الكمال، واتقن فنون التأثير على العقل الباطن للجماهير، لم يكن يمتلك سوى اسلحة تقليدية. ولقد فكر هتلر بالسلاح الذري، إلا انه بلجوئه الى ابعاد العلماء اليهود عن المانيا قد أنقذ العالم (من حيث لا يدري) من دمار هذا السلاح. ومن المعروف ان الحقد لم يكن أبدا مرشدا حسنا في أي عهد من العهود. ترى أية أحداث كان من الممكن ان تقع لو أن هتلر استطاع ان يمتلك سلاحاً كقنبلة هيروشيما في العام ١٩٤٤؟ يقينا ان وجه الامور كان سيتبدل. وقد افدنا من مهلة زمنية صغيرة جدا، ومن تأثير حدث صُدفي غير منتظر، ومن تأجيل زمني يمكن تعريفه على الشكل التالي: انعدام التطابق بين الاسطورة والـذرة ، بين الحد الاقصى النفسي والحد الاقصى المادي.

بيد ان هذا التطابق قائم الآن بصورة دائمة، ولقد اصبح المعطية الدائمة والخطر الأساسي، ولهذا فإن الاستراتيجية تدخل مرحلة جديدة كل الجدة. ولا تختلف الاستراتيجية المعاصرة عن استراتيجية المراحل السابقة في درجتها فحسب، بل انها تختلف في طبيعتها ايضا. وأسمي هذه المرحلة بالمرحلة النووية- الاسطورية، التي تترجم بتعبير مركّب، نفسي ومادي في الوقت ذاته: انها **استراتيجية الردع**.

وما زالت هذه الكلمات غامضة ومبهمة، لانها تتركنا نفترض بأن الاستراتيجية تبقى جزءاً من الحرب، في حين اصبحت الاستراتيجية حربية وثورية في الوقت ذاته. وسنجد بعد الآن ان كل موقف حربي ممكن يتطابق مع موقف ثوري محتمل، وان فن الحرب الذي يتضمن تهديدا للاجساد بضربات مميتة، يتزامن مع تقنية ثورية تتضمن تأثير على الافكار من اجل تبديل العقليات وتغيير العقائد. فهنا نجد الخوف الذي يستهدف تحقيق الانتصار، وهناك الثورة التي تستهدف التغيير.

ان هذين النموذجين من الحرب يختلطان ويتداخلان، ويؤثر كل منهما على الآخر. وهما يملكان علاقات داخلية متبادلة. ومنذ البداية، وكما حدث في الحروب الصليبية، نجد ان هناك نشرا لافكار معينة ابان الحرب، ودعوة روحية الى حكم الآلهة، والاله. ولكن في أيامنا هذه (وكما لو أن البشرية تستعد لمجابهة نهائية وواضحة) اصبحت وسائل الدعاية

ووسائل التدمير ومركباتها اهدافا للفكر، وفنونا نابعة عن حساب رياضي دقيق.

وستُطرح كثير من الاعمال العلمية العلنية او السرية على الناس حول هذا الموضوع الأخّاذ الذي لا يمكن تجنبه، وليس عملي هذا سوى محاولة لطرح طريقة تفكير تركيبية.

* * *

ضمن الحد الذي يتدخل فيه الفكر في سياقات العنف التي نسميها الثورات والحروب، فإن عليه ان يتدخل فيها بكليّته.

إن الفكر، بشكله المتكامل، لا يأخذ بالاعتبار الاسباب فقط، بل يأخذ بالاعتبار الغايات ايضا، ولا يهتم فقط **بالوسائل** التي نخوض الحرب والثورة بواسطتها، ولكنه يهتم ايضا **بالسبب** الذي نثور او نخوض الحرب من اجله، لذا فان من الخطأ التفكير بهذه الامور عن طريق وضع اقواس حول المعضلات النهائية التي تشكل مسائل الغايات.

من الواضح ان الحروب والثورات تنشأ في آخر المطاف من تفكير المحاربين او الثوار بالمعنى النهائي للانسان، والحياة، والموت، وما بعد الموت، والله. ومن البديهي ان لا تكون ردود فعل الشعب المتطبع بالفكر اليهودي أو الاسلامي أو المسيحي كردود فعل شعب ملحد يهتم بتنظيم الحياة الدنيوية فقط. وفي النهاية، فان التمييز بين الوسائل المقبولة والوسائل الممنوعة في الحرب، واستخدام المفاجأة، والخداع، وخرق التعهدات، كل هذا يفترض فلسفة لما وراء الطبيعة. وان التضحية أو عدم التضحية بحياة مئات الملايين من الرجال، مسائل ترتبط بتصورنا للحياة البشرية ومآلها. وقد قال باسكال: «يتغير علم الاخلاق تغيرا كبيرا وفق الايمان بخلود الروح او بفنائها».

واني أعرف بأن الاستراتيجيين يصمتون امام هذه الحالات العقائدية؛ لانهم يعتبرونها مجالات ذاتية، سرية أو خاصة، ولا تهم رجال الحرب. وكذلك فان الذين يصنعون الثورات أو يقاومونها يخضعون لقانون الصمت هذا. ولكن عصرنا الواضح لا يقبل الغموض والاساطير المقدسة السابقة ابدا. ان اكثر المشاعر احتراما، والتي كانت حتى يومنا هذا لا تمس دون ان يشكل مسّها تدنيسا للحرمات، لم تعد كافية لتوحيد الضمائر. ولا يتساهل الشبان، وهم صورة عالم المستقبل، ازاء النفاق حتى لو كان مفيدا،

وازاء الخدع المقدسة. وهذا لا يعني بأن حب الوطن قد تناقص وتدنى، وانما يعني انه ينبغي ان يكون هذا الحب معللا، ومقنعا، وذاتيا، وواعياً.

ولا يمكن بعد الآن السكوت طويلا عند بحث الامور الجوهرية لحياتنا، ولا ان يمنعنا الحياء عن مناقشة المبادىء التي يبني الانسان عليها سلوكه، هذه المبادىء التي يجب ألا تتمتع بالعصمة وألا تُحمى من النقد. واذا كان الالحاد قد اصبح مسألة مطروحة بكل وضوح حتى من قبل الكنيسة، فان هذا الطرح لا يعني فقط بأن الملحدين قد صبحوا اكثر وأقوى من ذي قبل، بل يعني ايضا بأن كل انسان غدا واعيا بالمسألة العليا، ولا يريد حلها وفقا للعُرف او تحت تأثير الخوف.

ولهذا فقد حاولت في دراستي هذه عن الاستراتيجية، عدم اسدال الستار على المسائل العليا، ضمن الحد الذي تحكم فيه هذه المسائل في عصرنا مسارات السلم والتهديد والحرب. وأعتقد كما اعتقد البيركامو، بأن مسألةالانتحار التي يواجهها العالم هي اخطر معضلة تطرح على الانسان. فالانتحار، هذا لعمل البشري الذي لا يعرفه الحيوان، هو عمل «ميتافيزيقي»، وشكل من الرد الساخر واليائس على الغياب الالهي، وحل متشائم وبسيط لمسألة الوجود. الا ان مسألة الانتحار في عصرنا- كما سأذكر في نهاية هذا الكتاب- تنتقل من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي. فلأول مرة في التاريخ، يستطيع الجنس البشري بكامله ان ينتحر اليوم بحرية انتحار متبادلا. حتى أن بقاءه على قيد الحياة لا يرجع فقط الى ارادة البقاء على قيد الحياة الغريزية او السياسية، والى غريزة حب البقاء (فالغريزة هنا لا تكفي أبدا للحياة)، بل يرجع ايضا الى عمل عقلاني متبادل، والى اقتناع عميق بأن الحياة شيء جميل للجنس البشري، وان يأس أحد الأطراف لا يستطيع ان يؤدي الى موت الجميع، ولا يجب ان يؤدي الى ذلك. إن المحاكمة الحرة، والثقة بالانسان وبالوجود الذي يتعلق به استمرار جنسنا، هي في الحقيقة عمل فكري، وعمل فكري ينصب على المسائل العليا. أي أنه بايجاز عمل «ميتافيزيقي». ولهذا اعتقدت ان من واجبي نحت كلمة جديدة هي «الميتاستراتيجية» أي ما وراء الاستراتيجية، حتى أؤكد بأن العمل الاستراتيجي قد اصبح منذ الآن عملا فلسفيا. وهذا يعطيني العذر في وضع هذا الكتاب العسكري، رغم أنني مدني.

* * *

وسأذكر الآن مم يتألف هذا الكتاب.

ليس ما اقدمه في الحقيقة كتابا، بل انه مجموعة محاضرات كتبت في ظروف مختلفة، تفصل بينها فواصل زمنية طويلة. وقد فكرت في اعادة صياغتها، وتوحيد اسلوبها. ولكن هذا العمل لم يكن ليسد الثغرات الموجودة في الكتاب. ونحن في زمننا هذا لا نملك الوقت الذي نستمتع فيه بأوقات الفراغ وننجز فيه اعمالا كاملة. ومن اجل هذا تركت هذه المحاضرات تأخذ موقعها في الكتاب، مع المحافظة على ترتيبها الزمني.

ان هذه المجموعة من المحاضرات تعكس تاريخ جيلي، الذي لم يشترك في حرب ١٩١٤، مع انه وعى ذاته خلال معركتي المارن وفردان، ومعركة فرنسا. وقد زُج بهذا الجيل في الحرب العجيبة التي اندلعت في العام ١٩٤٠، وكانت بداية ظهور نوع جديد من الحرب، وهي الحرب التي عاصرت ظهور اشكال جديدة من المواجهة، يهزم فيها الضعيف من هو اكثر منه قوة. وقد عاصر هذا الجيل ايضا حروبا عجيبة يسميها الاقوياء حروبا ثورية. وربط هذا الجيل، اكثر من اي جيل آخر، الحرب الوطنية بالحرب الاجتماعية وربما بالحرب الاهلية، ورأى ولادة السلاح المطلق القادر على الغاء الحرب والقادر على ابادة البشرية ايضا. واني لأتساءل عما اذا كان قد وجد جيل قُدمت له مادة اكثر من المادة التي قُدمت لجيلنا، وفرص اكثر، ليمعن النظر في ظاهرة «الحرب والسلم»، وليميز فيها بين الجوهري والثانوي، وليواجه بالتالي الصراعات المحتملة بمزيد من المرونة والشجاعة الواعية. حقا، ما اغرب الفاصل الزمني بين العامين ١٩٤٠ و١٩٧٠.

تنتظم مجموعة المحاضرات هذه كالتالي: اولا هناك محاضرة وجدتها بمحض الصدفة بين أوراقي. لقد تركتها على ما هي عليه بسبب تاريخ كتابتها، حيث أنني كتبتها في أيار (مايو) ١٩٤٠. وكان موضوعها: هتلر. ولقد كنا بحاجة الى شيء من سلامة النية أو الجرأة لنتحدث عن هذا الرجل بصورة عادلة وواعية وعاقلة، عندما كان في منتهى الحيوية، ومصدرا للتهديد. ومع هذا فقد كان الحديث عن هتلر سهلا وميسورا بسبب الوثائق الموجودة، كالكتاب الغريب لهيرمان براو خنينغ «هتلر قال لي» الذي ظهر في باريس في

العام ١٩٣٩[1]. وبدافع الحماس او بدافع الحساب، كان هتلر لا يخفي مشروعاته الجنونية وطرقه الجديدة ونبوءته المخيفة. وكنا في أيار (مايو) ١٩٤٠ في وضع يسمح لي بوصف هذه المشروعات. وكنت قد آمنت وقتها بأنه ليس من الواجب فقط أن أفكر بهتلر، كما يفكر معظم الفرنسيين، بل ان الواجب يفرض علي ان أفكر كما يفكر هتلر.

وعندما أعدت قراءة نص المحاضرة بعد ثلاثين عاما، لم اجد أنه نص قصير النظر. وقد وضعته في مقدمة هذا الكتاب لانه يوضح دخول الحرب في هذه المرحلة المستحدثة التي نطبق فيها، على الصراع بين الامم، اساليب الثورات، والتأثير على العقل الباطن للجماهير الذي يمهد لعمل الأسلحة، ويجعله غير ضروري الى حد ما.

وقد رأيت ان الفكرة التي ترتسم بوضوح، والتي اصبحت السبب الاساسي لهذه التأملات، هي ان فن الحرب هو تجنب الحرب، وذلك بالتأثير على الحالة النفسية بواسطة حالة نفسية، بالخوف والشلل والردع. ويتطلب هذا الامر انواعا اخرى من الشجاعة، غير الشجاعة الحربية، لاستخدامها كوسائل للرد. وقد قال ستاندال عن احد ابطاله: «لم يكن شجاعا الا في الحرب».

ثم تأتي بعد ذلك محاضرتان تلخصان درسا استخلصته من تدريس استمر اثني عشر عاما في مدرسة الحرب، حيث دُعيت الى التدريس فيها في العام ١٩٥٢ بناء على ثقة الجنرال دولا شابيل[2]. وكان هو الذي اختار موضوعيهما. وقد قال لي عندئذ: «ينبغي أن نستخلص نوعا من المنطق في العمل الحربي، كما فعلت في كتابك (فن التفكير الجديد)، الذي أفادني في العام ١٩٤١- ١٩٤٢ كموضوع للتأمل»[3]. وامتثالا لهذا الايحاء أعددت محاضرة فن التفكير وادارة الحرب.

---

(١) كنت قد قرأت الطبعة ١٤٣ من هذا الكتاب، ووضعت عليها بعض الملاحظات، وكانت قد ظهرت في باريس عن منشورات Cooperation، مع مقدمة لمارسيل ري. ونملك الأن عن هتلر معلومات أوثق، ولكني حرصت على ابقاء النص على حاله.

(٢) لقد جدد خلفاؤه في إدارة المدرسة هذه الثقة بي وضمن إطار الروحية ذاتها. وأود أن أشكر هنا الاميرال كونيج مدير مدرسة الحرب البحرية الذي دعاني أيضاً لعرض هذه الأفكار.

(٣) Nouvel Art de penser Edition Aubier

ثم أستدعاني الجنرال دولا شابيل (واعتقد ان هذا الاستدعاء تم في العام التالي) وقال لي: «والآن، سأطلب منك عملا آخر. ان كل استراتيجية تحتم وجود فلسفة كامنة. وقد تأمل كلاوزفيتز حملات نابليون كما تأملها جوميني، لكنه ذهب ابعد من جوميني (الذي كان سان بوف معجبا به). لماذا؟ لان كلاوزفيتز مشبع بفلسفة ما وراء الطبيعة، فقد قرأ كانت، كما قرأ هيغل بصورة خاصة». وأضاف دولا شابيل قائلا: «ودون ان يكون لديّ فكرة متميزة، فاني اعتقد باننا سنجد في تكوين فوش والهامه بصمات الفلسفة الفرنسية كما ظهرت لدى ديكارت، وباسكال، وبرغسون. واني اقول لك هذا لأوضح ما سأطلبه منك. اننا لا نستطيع ان نعرف خصمنا المحتمل، ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن خصمنا يستمد فلسفته من كارل ماركس، وقد استمد ماركس فلسفته من هيغل. اذن فالمطلوب منك فلسفة هذه المسألة التي اطرحها عليك. وبصفتك مؤرخا للفلسفة، فلا بد انك قد اشبعت هيغل درسا وكشفت كل فلسفته. فأنت تعرف نموذج تفكيره، ومسلّماته وطرائقه. اني اطلب اليك ان تشرح لنا كيف يؤثر الفكر الهيغيلي والماركسي على مبادىء الحرب الحديثة وأساليبها. لا تكن تقنيا اكثر مما يجب. رفقا بالمحاربين، إنها مسألة هامة لتلاميذ مدرسة الحرب وللملحقين العسكريين الاجانب الذين سيستمعون اليك، والذين سيكون من بينهم- وينبغي ان لا تنسى هذا- امريكيون وروس».

هذا هو الدافع الذي جعلني أمعن الفكر بكل من هيغل والحرب. وهذا هو أصل المحاضرة الثانية.

وهناك محاضرة اخرى تتعلق بصورة أعم بعلاقات عمل الذهن (الفكر) مع عمل الإرادة (العمل). ويجد القارىء مادتها في كتابي «دعوة إلى الفكر والحياة». لذا فاني لم أعد الى نشرها هنا.

وبالمقابل، فقد اضفت الى الكتاب فصلا رابعا عن الردع. وهو تأمل في التصورات الجديدة (الاحتمالية) للاستراتيجية. ولقد حاولت فيه مواجهة مسألة المستقبل البشري في أعلى عمومياته واكثرها شمولا.

وليسمح لي القراء باهداء هذا الكتاب الى زملائي في الجيش الذين تعلمت منهم

الكثير في مجال الفكر، وان أسجل بينهم اسم معلمي وصديقي الحميم الجنرال ويغان، الذي ادخلني خلال الثلاثين عاماالتي عرفته فيها في دماغ من كان يسميه «رئيسي» (المقصود هنا المارشال فوش)، والذي كان من العبقريات الاستراتيجية الأصيلة في هذا العصر.

جان غيتون

هتلر والثورة والحرب

-١-

في العام ١٩١٩، كان في ميونيخ في مركز تدريب فوج المشاة ٤١ من القناصة البافاريين متطوع في الجيش الالماني يسمى ادولف هتلر[١]. وقد تلقى من رئيس له برتبة نقيب الامر بحضور اجتماع حزب جديد كان الجيش يريد مراقبة نشاطه، هو: «الحزب الوطني للعمال الالمان». واتاح له الحظ فرصا للتحدث في الاجتماع بحماس وعنف. وبعد عدة ايام تلقى بطاقة بريدية تعلن بأنه قد قُبل في الحزب. فذهب لحضور الاجتماع ثانية. ولم يكن الحزب يملك منهجاً أو صحيفة أو خاتما. ورغم هذا تلقى هتلر بطاقة العضوية التي تحمل رقم ٧، وقد تم هذا قبل عشرين عاماً من بدء الحملة البولونية. فمن كان ادولف هتلر هذا؟

لكي نقرر الحقيقة نقول بأن هتلر كان رجلا فاشلا. لم يكن لديه عائلة، ولا يحمل القابا جامعية، ولا يملك مهنة أو رتبة. وكان فاشلا أينما حل واقام. وكانت نجاحاته الوحيدة ترجع الى احاديثه واقواله. فلم يكن شيئا يذكر. وانتم تعرفون الباقي. فهذا الرجل الذي كان مشردا من نوع خاص قد أصبح زعيما للحزب الذي فرض نفسه على المانيا فيما بعد، ونقل لهذا الحزب ايمانه وعقيدته، فأعلن الحزب اعتناقه لهذه العقيدة. وخلال سجنه المؤقت بعد محاولة انقلاب فاشلة كتب كتابا لا قيمة له[٢]، وغدا هذا الكتاب فيما بعد من اكثر الكتب رواجا في هذا القرن. وهناك ما هو اشد غرابة ايضا، وهو وصوله الى السلطة «بصورة شرعية» بتاريخ ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣، ودون اهراق دماء.

(١) أذكر القارىء من جديد بأنني أعيد محاضرة القيتها في مولان، في ايار (مايو) ١٩٤٠، بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية وغزو الالمان لبولونيا، دون أن أدخل عليها أي تبديل.

(٢) كفاحي.

ودخول قواته سلميا الى فيينا وبراغ. ولثلاث مرات على التوالي زاره «تشامبرلين» رئيس وزراء اكبر امبراطورية،ليسأله عن شروطه في السلم. وشن اخيرا في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ـ بعد رفض أربع عشرة محاولة للتوسطـ حربا تهدد بالانتشار الى العالم كله، ولا يتجاوز عمره الـ ٥١ عاماً.

قد يخيل للمرء عندما يتأمل كل هذا أنه في حلم. ومن حق كل فرد منا ان يتساءل عما اذا كان مثل هذا يتم في عصرنا أم في عصر آخر. حقا لقد عرف التاريخ حروبا وغزاة، ولكن عالم الامس لم يكن على مستوانا. وبوسعنا القول بأننا نعاصر أوسع واعمق اضطراب عرفته البشرية.

وهناك شيء آخر يثيرني ويدهشني اكثر ايضا،هو قوة الارادة البشرية. لقد كنت اسمع غالباً بأن الرجال العظام لا وجود لهم، وأنهم انعكاس زمنهم ونتاج عصرهم. حقا ان بيئة هتلر دفعته بصورة عجيبة، كما خدمته الظروف الى حد كبير. ورغم هذا فان اقل الوقائع اثارة للجدل والنزاع، واكثرها امتهاناً للفكر في هذه المسألة، هي ان هذا الرجل قد فرض ارادته على عدد كبير من الرجال، وانه كانت هناك لحظات (وسيكون هناك لحظات اخرى من دون شك) يرتبط فيها مصير البشر وحياتهم بما سيقرره هتلر في ليلة ظلماء، أو في فجر يوم من الأيام.

ان هذا الرجل يعيش على بعد ٥٠٠ كلم منا،وبعد ساعتي طيران يكون بوسعنا ان نراه ونتحدث اليه. واني أود دراسته معكم لانه خصمنا، ولان أمة بكاملها تتجسد فيه، ولان معرفة الخصم جزء ضروري من اعداد النصر، نظرا لان جزءا أيضا من نجاح هتلر ناجم عن الهالة المعنوية التي تحيط به. وأنه لمن الاهمية بمكان كبير اسقاط القناع عن وجهه.

كيف يمكن دراسته؟ كيف نحلل رجلا متحركا سريع التبدل مثل هتلر؟ كيف يمكن معرفة رجل،خصوصا اذا كان رجل دولة،قد اعتاد على ارتداء بزة فضفاضة، وعلى ممارسة التنكر وتضخيم الذات؟ ان معرفة رجل كهتلر مسألة سهلة، لانه تحدث عن نفسه بكثرة، وكان حديثه عنها احدى خصائص دعايته. فكثيرا ما تتناوله دعايته وتتحدث عنه لتطرح حياته علنا امام الآخرين. وتمزج هذه الدعاية بين حياته الشخصية وحياته العامة. انه يعيش على المسرح، وليس هناك من موضوع لا يخوض فيه ويتحدث عنه. لذا فنحن

نعرفه جيدا الى حد ما، وقدر الامكان. فلنطرح على انفسنا عدة اسئلة. ما هي طبيعة حساسيته وشعوره؟ ثم ما هي افكاره وابتكاراته الكبرى؟ وماذا قدم من جديد للعالم الذي نعيش فيه؟

ان هتلر يتمتع بثقافة محدودة وبائسة جدا. ولقد طرأ على حساسيته منذ الاصل انحرافات غريبة. انه حساس، ولكنه حشاس الى حد كبير، ويتمتع بحساسية منحتها له الطبيعة بصورة سيئة انه مهتز ومتذبذب بصورة دائمة وعنيفة. وهذه هي النقطة الاولى التي نستطيع الانطلاق منها للتنبؤ باعماله وتصرفاته، خاصة بعد ان اجمع على هذه النقطة كل الذين اقتربوا منه، وعرفوه معرفة وثيقة لا معرفة الاستعراضات فحسب حيث يُظهر قوة غريبة. ففي بعض اللحظات من حديثه لا يكون هو ذاته، انه يحتد ويتحمس، تتدافع الكلمات من فمه، وتتساقط الشتائم، ولهذا فان مشاركة الجماهير له والتحامها معه تعزى لهذه القدرة على التأثير والانفعال. انه رجل مغناطيسي، وسيط روحاني، ولا يمكن اعتباره خطيبا، ولكن فيه شيئا من صفات الخطيب. انه اشبه بالدراويش، فهو رجل به مس الى حد ما، ولا يتمالك نفسه ابدا. هذه هي حقا صفته الاولى. ولكنها تطورت بفضل الابتكارات الفنية في فن تضخيم الصوت وتكبيره. فماذا كان من الممكن ان يغدو هتلر لولا مكبر الصوت والمذياع؟ لقد اسمع هتلر شعبا بكامله صوتا متهدجا وساخطا بواسطة المذياع. وهو يعرف جيدا ان سيكولوجية الحشود تختلف عن سيكولوجية الافراد، وان شيئا جديدا يولد من تجمع غريب لمجموعة من الرجال، ويجعل من المتعذر مخاطبتهم بواسطة العقل، ويفرض مخاطبتهم بواسطة المشاعر والانفعالات.

ان هتلر شخصية غير مثقفة، ولكنه شخصية عنيدة ومتذبذبة الى حد كبير، ومرنة وحساسة. انه ليس حساسا بالطبع كالاخرين، ولكنه حساس بصورة عجيبة. انه يتقمص ويعيش كل عمل من اعماله، ويتفاعل مع اقواله وافعاله. انه لا يخطب، بل يزمجر. وهذا بالطبع هو اكثر الصفات بروزا في شخصيته. هذا الرجل المقتنع والملتزم والنابض ليس سياسيا، ولكنه «متصوف». الا اننا اذا نظرنا اليه عن قرب نجد ان حساسيته غريبة جدا! ان اسلوبه هو اسلوب الغريزة والتصميم المباغت. ويحس هتلر بهلع عميق من التقنيين والاختصاصيين والمنظّرين. وهو بثقافته الحالية نقيض ما نُعده بواسطة تعليمنا واساليبنا

الحديثة والقديمة. انه الحركة والغريزة. ولننظر الى هذه الحساسية عن قرب.

يقول لنا احد الذين عاشوا الى جواره وعاصروا حياته:

«ان هتلر يمقت التقنيين والخبراء والاختصاصيين الى حد كبير، ولا يهتم ابدا بحكمهم. وكان يعتبرهم مجرد أدوات بسيطة. . . . وكان يردد القول التالي: اعتمدوا على حدسكم وغريزتكم، وعلى كل ما تريدون، ولكن لا تعتمدوا ابدا على معارفكم. ان التقنيين لا يملكون غريزة ابدا».

وكتب عنه السفير فرانسوا بونسيه ما يلي: «انه سريع التبدل، كتوم، متناقض، غامض. ان هذا الرجل ذا المظهر الحليم، المتفاعل مع جمال الطبيعة والمتأثر به، والذي عرض امامي عندما كنا نتناول الشاي افكارا معقولة عن السياسة الاوروبية، قادر في الوقت نفسه على ارتكاب اسوأ الاعمال الجنونية والتصرفات العنيفة الوحشية، ومتابعة المطامع الخارجة عن حدود العقل. ويمكنه في يوم من الايام ان يقوض الدول وهو امام خارطة للعالم، ويقلب القارات، ويغير الجغرافيا والتاريخ كإله به مسّ من الجنون. وبوسعه في ايام اخرى، ان يحلم بأن يكون بطل سلم دائم، يبنى خلاله صروحاً عظيمة».

وسأضع في الجدول التالي تناقضات طبيعتة:

ـهتلر يحب الطبيعة والنزهات الفردية في الغابة، ويحب الزهور والاطفال والعصافير. انه يبكي حزنا أمام المآسي.	ـ مع ذلك فهو قادر على اتخاذ اكثر القرارات هولا ورعبا ودموية باعصاب باردة. وقد لجأ الى هذا بتاريخ ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٣ عندما شن سلسلة من الاغتيالات، ولجأ الى هذا في الاول من ايلول (سبتمبر) عندما شن الحرب، وعندما تبنى الرأي القائل بأن الحرب المعتدلة هي أسوأ الحروب وأشدها هولاً.

-هتلر رجل ناسك: لا يشرب الخمر، ولا يدخن التبغ، وهو أعزب.

- مع هذا، فهو يتسامح في كثير من الاعمال المتطرفة واللاأخلاقية التي يمارسها أفراد حاشيته، بل انه يشجعهم ايضا.

-يتفوه هتلر دوما بكلمات السلم والعدالة والمساواة.

-انه يعد للحرب، ويقوم بها، ويوسعها، ويزيد حدتها.

ولم يكن لهتلر حياة خاصة أو عائلية، ولا حياة منضبطة مجدة، ولا حياة مستمرة. وكان اللورد هاليفاكس يقول لي: «لقد تحدثت معه ساعة كاملة. وتكلم هو ساعة وربع الساعة. انه وسيط روحاني». ويحتاج المستشار هتلر الى التأثير والانفعال لكي يعمل، انه لا يعمل ابدا على ارض العقل، بل ينطلق دائما من العنف.

ورغم هذا، فإن هذا الرجل الذي لم تكن له حياته الشخصية (بل لانه لا يملك حياة شخصية، وحياة عائلية، ولا يملك اتصالا مع ذاته) يملك موهبة عجيبة للتلاحم مع الحشود والجماعات. ويكمن سر قوته في انه يقول بصوت عال ما يفكر به الناس بصوت منخفض دون أن يجرؤوا على البوح به. انه يشفي الجماهير بتحرير عقلها الباطن، وهو من هذه الزاوية يشبه فرويد. انه آلة غريبة لتسجيل اضطرابات النفوس البشرية. انه رجل يشبه طبلة الاذن التي تسجل حركة الاصوات كلها، وهو بطبيعته هذه يسجل اكثر الحركات خفوتا وسرية، كما يتفاعل مع الثورات الدفينة في صدر كل فرد في الجماهير. واليكم كيف يصفه احد المستمعين اليه:

«ثم جاءت الرعشة الكبرى للسعادة. كنت أنظر اليه محدقا في عينيه، فنظر اليّ بعينيه، ولم يكن لديّ سوى رغبة واحدة، هي ان اعود الى منزلي لابقى وحيدا مع هذا الانطباع الهائل الذي سحقني».

لقد فهم هتلر قوة الكلمة، وقيمة الكلام الحي. وقد قال عن ذلك ما يلي: «لا تنصاع الحشود الكبرى الا لقوة الكلمة».

ويمكن ان نقول بأنه استطاع السيطرة على الجماهير. ولديه خبرة بالجماهير واسلوب التعامل معها بشكل يجعلها تستمع اليه.

أ) في الايام الاولى: اذاعات، نشرات، مقالات، بيانات. ولكنه يعي تماما بأن الكتابة لا تستطيع ان تحل مكان الكلمة. لذا فقد درس كيف ينبغي ان تُلقى الكلمة، لكي تعطي اثرها في الجماهير (وسنضطر الى تذكر هذا). حتى أنه حدّد الساعة الملائمة لاخضاع قوى الارادة وذلك في المساء دوما.

ب) ان مخاطبة الحشود تختلف عن مخاطبة الافراد. وقد قلت بأن هتلر يشمئز من التقنيين ويفزع منهم. وهو ينفر ايضا من الجلسات الخاصة، كما ينفر من الاذكياء. انه يحتاج الى الحشود الكبيرة. انه يريد تحويل الناس الى حشود. فماذا سيعلمهم؟ هل يعلمهم الحقيقة؟ كلا. ليس هناك موضوعية في الحديث معهم، وهذا ما ينبغي ان يكون واضحا. وليس هناك رد أو تفنيد، لان الرد والتفنيد يفسحان المجال امام الشك والجدل. وينبغي ان تكون الفكرة بسيطة جدا: معاهدة فرساي مثلا، وشيئا أقوى من البسيط: الحقد والخوف. وقد قال هتلر في هذا الصدد ما يلي: «لكي أفرض ارادتي على الخصم، فإنني أبدأ بتحطيم ارادته وشلها، وازرع الاضطراب في صفوفه، وأجره الى الشك بنفسه».

وفي الوقت الذي كان يتكلم فيه، كتب كتابه كفاحي، الذي كان لوحة خيالية ومثالية بآن واحد. وبوسع كل الماني ان يتعرف على نفسه في هذه اللوحة. وقد قال هتلر في هذا الكتاب: «ينبغي ان تكون كل دعاية ذات شكل شعبي ومستوى فكري متلائم مع فهم أبلد الناس واقصرهم نظرا».

وقد حاولت قراءة كتاب كفاحي (الكتاب المنقح، الذي اعاد صياغته أحد المقربين، ثم امر هتلر باغتياله فيما بعد)، فوجدت فيه افكارا عادية متداولة لا جدة فيها، وموضوعات حاقدة. ورغم هذا فانه ينقل نفحة غريبة. لماذا؟

ان فيه نفحة غريبة لان هتلر يقدم نفسه في هذا الكتاب كألماني عادي أرفع من الالماني المتوسط بقليل، لا يحمل شهادة، ولا يتحلى بشجاعة اكثر من غيره من الالمان.

ولان كل ما يدعو اليه في السياسة يعطي الانطباع بأنه هو الذي اكتشفه. وتسيطر **الأنا** على الكتاب كله. وهذه **الانا** هي انا وانت. انه رجل الحشود الضخمة، والالماني المجهول، والجندي المجهول الذي بُعث من جديد.

-٢-

ان التحليل الاول لشخصية هتلر يسمح لنا بالرد على السؤال الاول فنقول ان هتلر رجل رائع بغريزته الجماعية، وبغريزته التي تعرف الحركات اللاشعورية للجماعة، وهي غريزة تحدد ماذا سيعمل الرجل العادي في كل بلد، وماذا بوسعه ان يعمل.

هذه هي موهبة هتلر. ولكن كيف سيستخدمها؟ هل سيستخدمها للبناء ام للتدمير؟ هل سيستخدمها لصنع عالم جديد متجدد، ام انه سيستخدمها للتفتيت والتخريب؟

لو مُنحت هذه الموهبة لبطل أو قديس لتمت اعمال طيبة كثيرة.

هذه هي معضلة المعضلات. إن مأساة المآسي هي الاختيار بين الأفضل والاسوأ. لقد كان بوسع هتلر استخدام موهبته ليصلح شعبه ويبعثه ويجدده، بيد انه استخدم هذه الموهبة للتدمير، لأنه محروم من الحس الخلقي والانساني، ولان حساسيته هي حساسية التمرد، ولان فكره ثائر دوما.

لقد قلص نابليون فن الاستراتيجية الى بضع حكم بدائية تقريبا، وبسيطة وسهلة التنفيذ. بيد أنه عرف كصحفي كبير كيف يثير الخيال بأسلوب نشراته، مثله مثل قادة الثورات، ولكنه لم يحاول تحويل فنه الى حِكَمْ، ولم يحاول البحث عن قوانين للاستراتيجية النفسية. وكانت هذه الاستراتيجية بالنسبة اليه ضمنية. وكان يمارس هذه الاستراتيجية من دون شك، وقد مارسها الجميع دوما. فالأكاذيب وصيحات الحرب قديمة قدم الحرب ذاتها. ولكن احدا لم يفكر بأن يستخلص منها منطقا، أو ان يعبّر عنها بقوانين. وكان للاستراتيجية النفسية قبل اندلاع الثورة الفرنسية في العام ١٧٨٩ منظّروها من امثال جيبير أو فريدريك الثاني. ولكن الاستراتيجية النفسية لروبسبيير أو دانتون لم تقنن ابدا. اما بونابرت، فقد كان عسكريا بجوهره، ولم يصبح ثوريا الا عن طريق الصدفة. لم تكن هذه مهنته، وقد رأيناه في ١٨ «برومير» عندما انقذه لوسيان سياسي العائلة. واني اتحدث عن

نابليون لأبرز بهذه المقارنة روح هتلر وشخصيته، هذا العسكري بمحض الصدفة والرجل الثوري بجوهره. ان هتلر لم يتمكن من ان يكون ضابطا. وموهبته هي الاقناع. وهذا هو الذي يدفعه الى ارتياد الاوساط الشيوعية. ولنصغ الى تصريحاته لفورستر:

«لقد تعلمت هذا من البلاشفة و :ا لا أستحي عندما اقول ذلك، لان المرء يتعلم من اعدائه اكثر مما يتعلم من اصدقائه. هل تعرف نظرية الانقلاب؟ ادرسها وستعرف عندئذ ماذا ينبغي ان تفعل».

كان هتلر يحس احساسا واضحا بأنه يبتدع استراتيجية جديدة، مستعينا بالفكر الشيوعي. ولم تكن استراتيجية الاجساد بل استراتيجية النفوس. انها الاستراتيجية النفسية. ولنستمع ايضا الى اعترافاته لفورستر:

« كلا، ان الاستراتيجية لا تتغير. وهي لا تتغير على كل حال بسبب الاكتشافات التقنية، والتفكير بهذا خطيئة مطلقة».

ثـم تحمس هتلر وقال لفورستر:

«قل لي ما هي التبدلات التي طرأت على الاستراتيجية منذ معركة كان؟ ماذا بدل اختراع الاسلحة النارية في القرون الوسطى من قوانين الاستراتيجية؟ اني ابقى متشائما فيما يتعلق بقيمة الاكتشافات التقنية. فما هو الاختراع الذي استطاع حتى الآن تثوير قوانين ادارة الحرب بصورة دائمة؟ ان كل اختراع يتبعه فورا اختراع آخر. حقا، ان تقنية السلاح تتقدم باستمرار، ومن المؤكد أن هذه التقنية ستخترع ايضا الشيء الكثير قبل ان تصل الى مستوى الكمال، ولكن العالم سيجد الرد دوما».

والامر على العكس في الحرب العملية. فان سمة هذه الحرب أن تتم قبل بدء الحرب، وأن يتم فيها الانتصار بصورة غير مرئية قبل عمليات القطعات، وذلك بالتأثير على النفوس. ولا تشتمل الحرب العملية البحث عن المعركة، بل تتضمن تجنب المعركة. وهذا يعود بنا الى القول (وهو ما لم يميزه بونابرت) بأن التقنية الحقيقية ليست تقنية اركول او ريفولي، بل تقنية سان كلود و١٨ «برومير». انها تقنية الانقلاب. ولنستمع الى هتلر من جديد وهو يتابع اعترافاته وتصريحاته.

«ان الجنرالات، بالرغم من دروس الحرب الماضية، يريدون ان يتصرفوا كما كان يتصرف فرسان الامس. وهم يعتقدون بأنهم مضطرون الى ادارة الحروب كما كانت تدار مبارزات القرون الوسطى».

«اني لا احتاج الى الفرسان. وكل ما احتاج اليه هو الثورات. وقد جعلت من العقيدة الثورية أساس سياستي».

«في نفس الوقت الذي سنتدخل فيه بكل أسلحتنا، فإننا سنثبط عزيمة الخصم بحرب الاعصاب. وسنحدث ثورة في فرنسا. وانا واثق من ذلك كثقتي بأن هذه الثورة لن تنشب في المانيا هذه المرة. وبوسعك ان تصدقني. وسأدخل الى فرنسا كمحرر. وسنمثل بالنسبة إلى البورجوازي الفرنسي الصغير ابطال نظام اجتماعي عادل، وسلم ابدي».

«لن أبدأ حربا ابدا دون ان يكون لديّ يقين مطلق مسبق بأن خصمي الـــذي تحطمت معنوياته سيسقط عند الصدمة الاولى».

ويتابع فورستر قائلا: عندها اصبحت نظرات هتلر ثابتة، وتهدج صوته واضاف:

«وعندما تتحطم معنويات العدو في الداخل، وعندما يصبح على حافة الثورة، وعندما تظهر بوادر نشوب الاضطرابات الاجتماعية بين صفوفه، عندئذ تدق الساعة، وتكفي ضربة واحدة للقضاء عليه. وتتم هجمات جوية كثيفة، وإغارات، واعمال ارهابية، وتخريب، ومؤامرات مستمرة في الداخل، واغتيالات للزعماء، كما تنظم هجمات ساحقة على كل النقاط الضعيفة من الدفاع المعادي، وتوجه بآن واحد كضربات المطرقة، دون الاهتمام بالاحتياطيات أو بالخسائر، تلك هي الحرب المقبلة. ضربات مطرقة جبارة تسحق كل شيء. أني لا ارى غير هذا، ولا أفكر بالباقي».

وتابع فورستر قائلا: وكان هتلر يتنبأ لنفسه عندما اضاف قائلاً:

«فورستر اذا خضت الحرب فربما أدخلت قطعاتي الى باريس ابان السلم. فسيرتدي جنودي البزات الفرنسية. وستسير قطعاتي في الشوارع في وضح النهار، ولن يخطر في ذهن احد ان يوقفها. وقد اعددت كل شيء بأدق التفاصيل. وستزحف هذه القطعات الى مقر هيئة الاركان العامة في كل بلد، وتحتل الوزارات والمجلس النيابي. وخلال بضع دقائق

ستفقد فرنسا وبولونيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا زعماءها. وسيسود اضطراب خارق للعادة في الجيوش التي حرمت من قادتها وهيئات اركانها بعد القضاء على كل الزعماء. ولكني سأكون قد اتصلت منذ مدة طويلة برجال سيشكلون حكومة جديدة، حكومة موالية لي. وسنجد مثل هؤلاء الرجال في كل مكان. ولن نحتاج حتى الى شرائهم. فسيأتون إلينا بأنفسهم، مدفوعين بالطموح، والعمى، والصراعات الحزبية، والعزة النفسية. وستوقع اتفاقية السلم معهم قبل ان تنشب الاشتباكات».

وتابع هتلر قوله:

«اني اؤكد لكم ايها السادة ان المستحيل هو الذي ينجح، وان اكثر الاحتمالات تحققا هو ما لا يمكن ان يصدق. وسنجد عددا لابأس به من المتطوعين. ومن الرجال المتحمسين كحرسنا النازي، وكلهم صامتون ومستعدون لتقديم التضحيات. وسنجعلهم يعبرون الحدود منذ ايام السلم بمجموعات صغيرة، وسيتصور العالم كله بأنهم مسالمون. انكم اليوم أيها السادة لا تصدقونني، ومع ذلك فسأنفذ ما اقوله لكم الآن، وسأدخل قطعاتي فصيلة اثر فصيلة. وربما نجعل هذه القطعات تنزل في المطارات لاننا لن نكون قادرين في هذا الوقت على نقل رجال بالجو فحسب، بل قادرون ايضا على نقل الاسلحة، ولن يكون هناك خط ماجينو لايقافنا».

«فورستر، ان استراتيجيتنا تتضمن تدمير العدو من الداخل، واجباره على تدمير نفسه بنفسه. وسيكون لدينا في كل مكان، في قلب كل بلد معاد لنا، اصدقاء يساعدوننا، وسنعرف كيف نكتسبهم. ان بلبلة المشاعر، والصراعات المعنوية، والتردد، والذعر، هي اسلحتنا في المستقبل».

ويتابع فورستر قائلا: ثم التفت هتلر الى ناحيتي وتابع حديثه:

«انت تعرف تاريخ الثورات، اليس كذلك. انها دوما القصة ذاتها. فالطبقات الحاكمة تستسلم. لماذا تستسلم؟ انها تتخاذل بانهزامية، لانها لم تعد تملك أية ارادة. إن سر الاستراتيجية الجديدة يكمن في دروس الثورة».

فاذا اعدنا الآن قراءة هذا النص، وجدنا فيه جوهر الاستراتيجية المطبقة على

المستوى النفسي : التفتيت، واكتساب الاصدقاء في المعسكر المعادي، ثم الهجوم المباغت وهذا هو الاسلوب الذي طبقه هتلر في النرويج.

-٣-

ليس هتلر ثورياً بتكتيكه فحسب، بل انه ثوري بعقيدته أيضاً (١).

هناك فارق كبير بين ماركس وهتلر: فليس هتلر عقائديا ولا مفكرا. بل انه يبحث لنفسه عن عقائد بعد القيام بالعمل بغية تبرير عمله. وكان يبدل هذه العقائد بسهولة. ان هتلر ثوري كماركس، ولكن ثورته كما قال براوخنينغ ذات مضمون متبدل. انها ثورة دائمة بمحتوى متغير. انها العدمية التي تخدم الديناميكية الالمانية. وقد التقى هتلر في بداية صعوده بالاقتصادي «غوتفريد فيدر» خلال الاجتماعات السرية للحزب. وانبهر هتلر بدروس فيدر، فاستغلها كمنصة وثوب للانطلاق. وخدم مذهب فيدر مخططات هتلر واهدافه الى حد كبير. فماذا كان فيدر يقول؟ كان يقول بأن الربح استعباد. واستنتج من هذا الأمر مفهوما للصراع الطبقي مماثلا لمفهوم الصراع الطبقي الماركسي، لكنه متطابق مع الوضع الالماني بعد الحرب العالمية الأولى. فالدولة المرهقة بالديون دولة غير حرة. وستصبح الدولة الاشتراكية- الوطنية دولة لا تجُنى فيها الأرباح.

ومن الناحية العملية لم تلغ فائدة رأس المال ابدا في الرايخ الثالث. ولكن هذا المذهب ما زال يخدم دعوة هتلر لمعاداة الرأسمالية. ويخدم هذا المذهب على الارض الدولية الحقد على الديموقراطيين الاثرياء. فقد كانت دولة ١٩١٨ المغلوبة دولة مديونة ومهانة، كالبروليتاري المذل والمهان من قبل الرأسمالي في مذهب ماركس. ولكن في حين كانت ثورة البروليتاريا عند ماركس دولية، فوق القومية، فان هتلر يعتبر الثورة ثورة الامة المغلوبة او ثورة الامة التي افقرتها الدول الرأسمالية المنتصرة، وحولتها الى بروليتاريا، ولهذا تنتفض الدولة الالمانية اليوم. وتخوض الامة كلها صراعا طبقيا، ولكن الطبقات التي

---

(١) لم يكن هتلر توريا بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، ولكنه كان ثوريا بمعنى انه كان يخالف القواعد التقليدية. والمقياس الوحيد الذي يميز الثوري الحقيقي عن الشخص الذي يأخذ لقب ثوري لانه لا يسير على القواعد المألوفة هو ان خط سير الاول مساير لخط سير التاريخ، على حين أن خط سير الثاني قد يكون معارضا لخط سير التاريخ. وهذه هي حالة هتلر. (المعربان)

صُهرت في الدولة منذ ذلك الحين لا تخوض اي صراع طبقي.

والفكرة المستخلصة بسيطة وسهلة. ان المانيا تمثل الدولة البروليتارية المستعبدة من قبل الدول الغنية. وينبغي ان لا تصور الحرب كحرب بين آمم، بل كحرب طبقية بين الأمم.

ويمكن القول بأن هتلر ليس ثوريا بتكتيكه فحسب، ولكنه ثوري بعقيدته أيضاً. وهو اذن ثوري جوهريا.

وهنا لا بد من ملاحظة ضرورية حول تطور هتلر. لان هناك مرحلتين في حياته العامة. المرحلة الاولى ظاهرة في كتابه كفاحي، وهي مرحلة قومية: فهو يطالب ببعث المانيا ونهوضها، وبأن تحتل مكانها تحت الشمس. ولكن ضمن هذا الموضوع يظهر موضوع آخر: الانقلاب العالمي والسيطرة على العالم.

بوسعنا القول بأن هناك نموذجين من الثوريين حسب تحديدهدف واضح وموقت أو هدف لا نهائي. ونجد أيضاً عند نابليون هذه الذبذبة بين المشروع الواضح المحدد والمشروع غير المحدد. بيد أن نابليون الذي يملك حس رجل الدولة، كان يكبح جماح الهدف اللانهائي. وقد حاول دوماً تأسيس دولة ودستور وقانون (وسلالة ايضا). ولكن هتلر لم يؤسس شيئاً، لأنه صوفي متمرد، وذكاء ثوري يقوم بعمل مدمر.

-٤-

من الصعب ان نستنتج في هذا الشهر (ايار ١٩٤٠). فالاستنتاج هنا يعني التنبؤ.

يلاحظ فورستر بان «اساليب هتلر لا تقتصر على مناورة الجيوش البسيطة، بل انها تتضمن عددا من المشروعات المعقدة الى حد كبير، والتي تختلط فيها السياسة بوجهة النظر الاقتصادية، والمؤامرات، والاستراتيجية العسكرية».

ويضيف فورستر الى ذلك قائلا:

«ان مبادراته مصممة لتأمين مصالحه على اكبر عدد من الارضيات المختلفة في الوقت

ذاته. وغالبا ما نرتكب خطيئة الحكم على مبادرة منها بأنها جنون سياسي أو عسكري متطرف، في حين لو نظرنا الى مجموع هذه المبادرات، مع عودة مناسبة الى الوراء، لوجدنا ان لها دلالة جوهرية.

«من السهل ان نقول بأن هتلر يعمل بصورة مخالفة للمبادىء الاولية للاستراتيجية، كمهاجمة النرويج عندما لم يكن يملك السيطرة البحرية، او كالهجوم الواسع الذي قد يشنه قريبا مع جناح غير محمي. ولكن ماذا تجدي حماية الجناح؟ ان هذا النوع من العمل الخالي من كل منطق هو ما يفعله، وهذا المبدأ الذي يدعو دوما الى تطبيق المستبعد وغير المعقول هو المبدأ الذي ينجح، وهو سر كل نجاحاته.

«انه لا يسعى الى التقيد بقواعد الاستراتيجية، بل انه يسعى لقلبها.

«ان الحرب في وضعها الحالي صراع لاتخاذ موقف ما قبل الانفجار النهائي.

«والاراضي المتنازع عليها ذات اهمية اقتصادية واستراتيجية كبرى، ويعتبر بعضها مواقع حيوية اساسية. ويريد هتلر السويد والنرويج للحصول على مناجم الحديد فيهما، وامتلاك قواعد للهجوم على انكلترا. ويريد هولندا وبلجيكا لزيادة هذه القواعد وعزل فرنسا. اما جنوب شرقي اوروبا، حيث يبدو ان هناك محاولة وشبكة الوقوع لتجزئة البلقان، فان ما يهمه اكثر من اي شيء آخر هو السيطرة على البحر الابيض المتوسط، لقطع مواصلات فرنسا البحرية مع مستعمراتها.»

«وسيحاول هتلر ضمان ولاء روسيا وايطاليا لقضيته. وان ما افتقر اليه على البرينر[1] هو عقد تحالف طويل الامد، يمكن ان يتحقق بشكل تعاون فعلي في اوقات ملائمة. ويجب ان نسلم بأن في وسعه الاندفاع في مشروع أخرق من وجهة النظر العسكرية، لكن نتائجه تضطر دولا اخرى الى الانضمام اليه. وان انتباه العالم يتركز اليوم على البلقان وهولندا بصورة صائبة.

«ولكن هتلر يستطيع في الوقت الحاضر الاستغناء عن الاستيلاء على اراض في جنوب

---

(١) البرينر: Brenner مضيق في جبال الالب الشرقية على الحدود الايطالية- النمساوية بين بولزانو وانسبروك. تقابل فيه موسوليني وهتلر عدة مرات في فترة ١٩٣٣- ١٩٤٥. (المعربان)

شرقي اوروبا. وبوسعه التخلي عنها لدول اخرى، كهنغاريا وايطاليا وروسيا، شريطة ان تتعاون معه هذه الدول ولو بصورة مؤقتة. وبوسعه الاكتفاء بانتصارات اقتصادية. فهو يعرف جيدا انه في حال انتصاره على الحلفاء، فان المانيا ستنتصر على روسيا وايطاليا عندما يأتي وقت اقتسام الغنائم.

«وعندما حضرت للمرة الاولى في العام ١٩٣٣ جلسة في عصبة الامم بصفتي رئيسا لمجلس نواب دانتزيغ، كان الرأي العام السويسري مضطربا باشاعات متعلقة بمشروع الماني لاختراق سويسرا باتجاه جنيف. وعندما عدت الى برلين، تحدثت مع هتلر عن هذه الشائعات. فضحك ضحكة ساخرة ولم يقدم لي أي تفسير، ولم يحدثني بعدها ابدا عن سويسرا. ولكنني ناقشت فيما بعد هذه المسألة مع اثنين من حكام المقاطعات النازية لم يكونا خبيرين عسكريين، لكنهما كانا ينتميان الى المجلس النازي الاعلى. واعطاني كلا الاثنين تفاصيل عن هذه الخطة لتطويق فرنسا من ناحية الجنوب.

«بيد ان هناك امرا مؤكدا هو ان بوسعنا ان نتوقع مفاجآت جديدة في الاسابيع التالية. فالنظام الذي سيطور هتلر خطته ضمن اطاره، يتعلق بالوضع السياسي ودرجة التفتيت التي سيتوصل اليها في كل منطقة من المناطق. فاذا نجح في هذا ولو جزئيا، فانه سيشن هجومه النهائي باتجاه الغرب، وربما يتم الهجوم بعد هجوم سلمي جديد.

«انها خطة رائعة، ولكنها خطة تتضمن كل معاني التهديد، رغم بعض الهزائم التي قد تتعرض لها، وهي تتضمن عددا من عناصر الشك.

«انها خطة على كل حال. وهي تتطلب مهارة كبرى، وينبغي ان نكون على استعداد لتنفيذها».

***

واريد ان أذكر ملاحظة نهائية عن الدعاية التي اضحت عند هتلر شكلا من اشكال الحرب، وسلاحا من الاسلحة.

ان الدعاية في نظر هتلر سلاح الثورة والحرب. فهي لا تنتمي ابدا الى مجال الفكر. انها الفكرة الموضوعة في خدمة القوة. وهي عبارة عن تجنيد الضمائر وتعبئتها. وهذا جديد كل الجدة في تاريخ العالم. ولا يمكن ان تظهر هذه الفكرة الا في الازمنة الحديثة التي حصلنا

فيها على اثمن انجازات العلم. تلك الانجازات التي وسعت وضاعفت مدى الكلمة وأثرها، واستخدمها خبث البشر ضد الفكر.

لقد فهم هتلر ان الخيال ما زال اقوى من الارادة، نظرا لان بوسعنا ان نؤثر على خيال شعب بكامله كما نؤثر على خيال طفل بتكرار الصيغ البسيطة نفسها على مسامعه دوما، وبالعمل المتضافر للرعب والخديعة، وهما الانفعالان الاساسيان اللذان يقودان الانسان. وكان من الواجب اذن وضع استراتيجية جديدة لا تعتمد على ميكانيكية القوات المسلحة اكثر من اعتمادها على ديناميكية الاهواء والمشاعر. هذه هي النقطة التي جدّد بواسطتها هذا المدني في فن الحرب. وقد حسّن بونابرت بعض الاساليب العسكرية الصرفة ووصل بها الى مستوى الكمال. فقد كان يؤثر على الجيش المعادي بالسرعة والمباغتة والتطويق والابادة، ولكنه لم يفكر ابدا (إلا إبان مؤامراته الدبلوماسية) في ان يخلق لنفسه حلفاء داخل خصومه،عن طريق الإيحاء اليهم بتبني المشاعر الملائمة لنواياه. ذلك لأن المواطنين كانوا بالنسبة اليه مجرد رعايا فقط. ولم يكن هناك في ذلك الوقت اية وسيلة للتأثير على الجماهير. ولم يكن من الممكن التأثير عليها الا بالذهب المفسد، فكيف يصنع لنفسه حلفاء وسط خصومه؟

ان الانتخابات العامة التي اِنتشرت في كل مكان، حتى في الانظمة الديكتاتورية، قد أثرت على الشعوب وجعلتها حساسة لوسائل الدعاية واساليبها. وتسمح الصحافة اليومية ببث الافكار والمشاعر بواسطة التكرار والالحاح المستمر عليها. واخيرافإن للاذاعة مزية فريدة في الغاء الحواجز المطلقة القائمة حتى الآن (الحدود). وتستطيع الاذاعة التأثير في قلب الشعب المعادي.

وتبدأ الدعاية بتفتيت القوى المعادية. وفي اللحظة الملائمة، تتدخل الضربة المباغتة. وهي مباغتة تؤثر على الفكر ايضا وتؤمن السيطرة عليه. ويظهر الجيش في كل مكان بآن واحد. ويكون العمل العسكري هنا عبارة عن عملية جراحية مع تخدير مسبق.

إن المقارنة التي تخطر للبال ايضا هي سقوط الشجرة تحت ضربات فأس الحطّاب. وتقوم الدعاية بدور المنشار، الذي يدمر التوازن ويحطم بنية شجرة السنديان دون ان يؤثر على مظهرها الخارجي. وتكفي بعدئذ ضربة عنيفة لكي يتهاوى كل شيء. وعندئذ يلعب

الجيش دوره، ولكنه لن يفعل سوى التقاط الثمرة. حرب نفسية قبل كل شيء، تصمم حسب نموذج التكتيك الثوري الذي لا تفعل خلاله الضربة الاخيرة سوى اتمام ما أعد سرا خلال فترة طويلة من الزمن.

ولكن هذا الشكل من الحرب النفسية لا يمكن ان يكون مفيدا في النهاية الا اذا تقيد بقانون الروح والفكر والوجدان. وتستطيع الدعاية المضلِّلة الحصول على نجاح آني، ولكن ليس للخداع مستقبل على المدى الطويل، لان هناك فكرا يعرف ما هو مطابق للعقل، ويملك القدرة على اختبار ما هو صحيح.

ونحتاج الى استخدام الطرق الكثيفة في الدعاية ضمن الحد الصحيح عندما لا نكون واثقين من النجاح. فالصراخ يخفي الاضطراب. واذا ظهرت الحماسة عنيفة هوجاء، كان ذلك دليلا على نقص في الثقة، ووجود ثغرات في الايمان مع شك حول حقيقة الحق الذي يدافع المرء عنه.

وينبغي ألا نخلط في بلد ما بين كثافة الدعاية فيه وشدة الطاقة المعنوية الملائمة لهذه الدعاية. وأتجرأ حتى على القول بأن هذين الشيئين متناسبان عكسيا في بعض الاحيان.

ان الدعاية صاخبة ومفاجئة. وينبغي أن تؤدي الى النتيجة فورا. وهي لا تعرف الانتظار. وتؤثر على الاعصاب لا على النفس. ولا تعيش الا في اللحظة الراهنة.

وتنتشر القوة المعنوية مع الزمن، وتتجدد من ذاتها ودون حاجة الى دعم خارجي. وهي تعرف كيف تتحمل وتنتظر وتعبر. ومن كان يتبع الخط المستقيم لا يخاف ابدا من طول الزمن.

ان الدعاية تؤثر على الاعصاب: انها تطرح صورا، ولا تكتفي بطرح هذه الصور بل انها توجهها بعنف. ولكثرة تكرارها واعادتها فانها تعتقد بانها قد اقنعت.

تحتاج القوة المعنوية لهذه الاساليب. فاذا ما استخدمت هذه الاساليب فان القوة المعنوية تتحفز. فقد بنيت هذه القوة على تجارب عديدة ومؤكدة، وتساوي قيمتها ما هو أفضل من الكلمات والوعود. والتجربة تغذي لانها تدفع المرء الى العيش مع الامل.

ان الدعاية قادرة على الكذب. بل انها تكذب قليلا وبشكل دائم. ولا تهتم هذه الدعاية ابدا الا بجانب واحد، وتخفي الجوانب الاخرى، وتُواري الهزائم، وتبالغ في النجاحات، وتجعل المرء في النهاية يعيش وسط المظاهر.

ان القوة المعنوية لا تخاف من رؤية الامور كما هي في الواقع. واذا رأتها كما هي فانها تراها كلها بآن واحد. ولا يستطيع الشر أن يخفي عنها الخير، كما لا يستطيع الظل أن يخفي عنها الضوء.

ولا يمكن للدعاية ان تعيش الا على الانتصارات، ولكنها عاجزة عن تحمل الهزائم، لانها تشتد عند الهزيمة ثم تسقط.

فن التفكير وإدارة الحرب

«ان الفن كله كامن في القواعد التي تحدثنا عنها. . . وكل القواعد الاخرى ضارة او غير نافعة. هذا ما تعلمته من تجربتي الطويلة مع مختلف انواع الكتب والاشخاص. . . ليس هناك شيء متعارف عليه كالاشياء الحسنة. وتكمن المسألة كلها في اكتشاف هذه الاشياء والتعرف عليها».

(باسكال)

«كيما يفهم المرء شيئا جيدا ويعمله لا بد له من النزول اليه من عل»

(إيميرسون)

انني اود قبل كل شيء تعريف ما سأحاول بحثه (١).

وليس المطروح تقديم طريقة في المحاكمة متلائمة مع معضلات الحرب، كما انني لا ارغب في عرض الطرائق التقليدية الخاصة بمدارس المنطق او الاستنباط او الجدلية، ولكن المطروح شيء اخر، اكثر تركيبية واشد بساطة. ويتمثل هذا الشيء في السمو فوق الاستراتيجية والمنطق، بغية محاولة كشف علاقتهما. ذلك لانني على يقين بان هناك علاقة خفية بين طرائق رجل الحرب وطرائق رجل الفكر، وان هذه الطرائق قادرة على ان توضح بعضها، وتدعم بعضها، تماما كما فكر ديكارت بالنسبة الى الهندسة والجبر.

لقد كان ابو الفلسفة الفرنسية (ديكارت) فيلسوفا وجنديا بآن واحد، ولهذا فان الطريقة التي وضعها، والتي انبثق منها الفكر الحديث، مرتبطة ارتباطا غير عرضي بالتفكير

---

(١) يقدم هذا الفصل مادة محاضرات القيتها في مدرسة الحرب العليا في العام ١٩٥٨ـ ١٩٥٩.

حول الحرب. وهناك قرابة خفية بين المبادىء التي تستوحى منها هذه الطريقة وفن الحرب المذكور في بديهياته الدائمة. وليس من قبيل الصدفة ان فرنسا انجبت باسكال ونابليون، فوش وبيرغسون. ولو علم هؤلاء الاشخاص بان المقارنة ستجزي بينهم لاصابتهم الدهشة، دون شك. ومع هذا فان من الممكن ان نجد بينهم تشابهات عميقة. ولقد عرفت فوش وبيرغسون شخصيا، وعن طريق كبار تلامذتهما. وكنت اصاب بالدهشة دائما من التشابهات الخفية بينهما. وسيكون التفكير في هذه التشابهات غرض دراستنا هذه. وسأحاول قبل كل شيء تحديد الطريقة التي بدت لي اكثر الطرائق ملاءمة لعملية المعرفة. وسنرى بعد ذلك تماثل هذه الطريقة مع تصرف الاستراتيجي.

يوجد في عالم الافكار مجموعتان غير متكاملتين: مجموعة المنهجيين، التجريديين، الانسيكلوبيديين، وجميع المفكرين الميالين الى اطلاق التعميمات بصورة مبكرة، والذين يودون في مجال الموضوع الذي يدرسونه اغلاق حلقة المعرفة كلها. ومجموعة الاخصائيين المخلصين للتفصيلات والامور الصغيرة الحقيقية والتجربة الصحيحة، والتبحّر المفرط. أولئك الذين يقضون وقتهم في اكتشاف قطاع واحد، او نقطة واحدة. ومن الواضح ان اية مجموعة من هاتين المجموعتين الفكريتين عاجزة عن تحقيق تطورها الكامل، وعاجزة عن الاختراع. ذلك لأن الحقيقة الحقة غير موجودة في المجرد او الخاص. ويكفي ان نتفحص مسار عبقري ما، سواء كان فنانا ام عالما (ام عالما وفنانا بآن واحد مثل ليوناردو دافينتشي) حتى نرى ان الطريقة تتمثل في تجربة ذات دلالة، اي تخمين الشكل او العمل الذي يحمل فكرة، والبدء بعد ذلك في البحث عن الفكرة داخل معطية ملموسة وحقيقية.

ويتمثل حس العبقري بدقة في تحديد هذه الحالات الفريدة، هذه الكائنات الاستثنائية الخارقة التي تضم العالم القوي الفعال، والمؤهلة لاعطائكم الكثير من المعلومات الاخرى. واذا ما درسنا طريقة عمل باسكال لاثارت دهشتنا اكثر من أي شيء آخر قدرته الغريبة على التنبؤ، والتفكير الدائم بالمواضع التي «تشابه الطبيعة فيها نفسها»، بهذه التجارب الملموسة المتميزة التي يمكن ان نستخلص منها عددا كبيرا من السمات الخاصة التي ستساعدنا في مجالات اخرى، مثل: مقاطع المخروط، والمثلث الحسابي، و«توازن السوائل»، وعدد من الامور المأخوذة من النظام البشري او الالهي، مثل:

السلوان ، وتناقضات الانسان، وغموض المسيح، الخ. . . ان اختبار منطلق ما، وضع ما، واحاطته بالشكوك والاسئلة، والتعمق في هذا المجال، واعطاءه عن طريق غرابته وتطبيقه بعدا عميقا، تمثل كلها اساس الثقافة كما يراها على الاقل الانسان العاقل خلال وجوده القصير، خاصة وان عدم قدرته على معرفة كل شيء خلال هذا الوجود، يجبره على ان يحدد نفسه تقريبا بنقطة واحدة، متذكرا الكلمة التالية التي كتبها نقيب في قطعات القناصة (كوصية) عشية موته ميتة مجيدة في العام ١٩١٥ : «لو انني كنت اعرف شيئا واحدا بعمق لعرفت كل شيء» (١).

لنتصور وجود محيط دائرة، ولنفترض ان هناك رجلا ذكيا ودقيقا حدد لنفسه مهمة معرفة هذا الشكل الذي وقع عليه، ولنطلق على هذا الرجل اسم (آ). ان اول طريقة لمعرفة الشكل ستكون عبارة عن السير على هذا المحيط، والمرور من جميع نقاطه. وهذه هي الطريقة الانسيكلوبيدية، الطريقة التي نختارها في البداية بسبب نهمنا للمعرفة، وبسبب السعادة الناجمة عن الانتقال دائما الى مكان جديد دون تعميق أي شيء ، تلك السعادة التي دمرت بوڤارد وبيكوشيه، والتي جعلتنا المدرسة بحاجة اليها.

بيد ان بوسع (آ) السير على طول المحيط دون ان يدري بأنه يسير على دائرة. لنعط الآن الى (آ) شيئا من الادراك، بل من المثابرة، عندها سيختار نقطة على المحيط، ويعمل فيها خرقا باتجاه المركز، ويسير على نصف قطر يتجه نحو العمق. ليصل الى المركز (م) (اذا ما حالفته كل الحظوظ). عندها سيفهم انه كان على محيط دائرة، ويمكن ان يمتلك سعادة تشكيل هذا المحيط. وسيعي معنى جملة بوفون العميقة التالية: «لا تخطو الطبيعة خطوة الى امام اذا لم تخطها في كل اتجاه».

هذه هي صورة الطريقتين المتبعتين للحصول على المعرفة. واولاهما هي طريقة الاغراء التي تبعثرنا على السطح بحركة لا نهاية لها. وتدفعنا الى الاعتقاد بأن كل شيء مختلف عن كل شيء. اما الطريقة الثانية فانها تحملنا نحو **الوحيد الضروري**، وتكشف لنا بذلك التشابه القائم بين اجزاء التجربة.

---

1 Lettres de guerre de Ferdinand Belmont (Plon 1915 avec une preface d'Henry Bordeaux cf). le travail intellectuel P.54-

ويأتي بيرغسون بمثال احدث يوضح به فكرة باسكال. واليكم كيف شرح بيرغسون سر طريقته في البحث عندما اعد «مادة وذاكرة». فلقد قال بانه عندما اراد البحث عن العلاقات بين الروح والمادة تجاهل العادة القديمة قدم الفلسفة نفسها، تلك العادة المتمثلة بتعريف الروح والمادة بشكل مجرد بغية تحديد علاقاتها، لان هذه «المعركة المتوازية» (لم يكن هذا التعبير تعبيره، ولكن الفكرة على الاقل فكرته) لم تؤد الى أية نتيجة. لقد كان من الضروري ايجاد نقطة تدقيق. لذا نراه يعيد البحث لايجاد هذه النقطة «حيث يتلامس نشاط المادة مع نشاط الروح». وكانت هذه النقطة هي المخ بعلاقته الحقيقية مع الذاكرة. وهي نقطة غير محددة بدقة كما ينبغي. واهتم بيرغسون بعد ذلك باصابات الفص الجبهي الثالث الايسر، وعلاقتها باضطرابات النطق الصحيح. وركز انتباهه خلال عدة سنوات على «حقل المعركة» الضيق هذا، لانه لاحظ فيه الفجوة الحقيقية بين المادي والروحي. وسمحت له هذه الدراسة المحدودة جدا، والمختارة بشكل رائع، ان يحل بطريقة مذهلة عددا من معضلات الفلسفة العامة. ولقد طبق الطريقة نفسها في مؤلفاته الاخرى، وبوسعنا ان نبرهن على ذلك بكل سهولة.

ومن الواضح ان هذا التحديد لنقطة التدقيق، الذي قال عنه ديكارت بأنه يمثل الطريقة كلها[1]، يتطلب فكرا ثاقبا غير محدد بقاعدة ما.

وبوسعنا في الوقت نفسه اعطاء بعض النصائح، كأن نقول مثلا بان من الضروري غالبا تقليد الجيولوجيين عندما يراقبون بكل عناية الاماكن التي تظهر فيها طبقتان متمايزتان متجاورتان. ان التحولات اي التلاحمات، والانتقالات، واللحظات التي يتوقف فيها هذا عن ان يكون هذا ليصبح ذاك، ومراحل الاصل او التبدل، عبارة عن دلالات الى ابعد درجة. واننا نحس جيدا عند التأليف بان اصعب الامور لا يتمثل في امتلاك آراء او افكار، قدر ما يتمثل في ربط رأيين او فكرتين بجملة غير مصطنعة. ان قدرة الفنان تتجسد في هذه القدرة على التحولات، والطبيعة فنانة في هذا المجال لدرجة تدعو الى اليأس من محاكاتها.

---

(١) «تتمثل الطريقة كلها في النظام وامتلاك اشياء يتوجب توجيه الفكر لاكتشاف حقيقة ما» (القاعدة الخامسة) في كتاب:

Regles pour la direction de l'Esprit. ed de la Pliade p. 20. cf I II VII IX XII

وهي التي تخفي هذه الانتقالات العنيفة غالبا (كالانتقال من القرد الى الانسان) تحت مظهر من الاستمرارية. ان البقاء في نقطة الاتصال والتمفصل، يعني احتمال اختراق سر من اسرار الطبيعة[1].

اما على صعيد التاريخ، فان الفترات التي تسهّل عمل الفكر هي فترات التحول، فترات الثورة. وينصح الاستراتيجي بمهاجمة جيش الخصمين المتحالفين في نقطة اتصال قواتهما. وينطبق هذا القول في المعركة التي تستهدف معرفة الحقيقة. فنحن نلاحظ قاعدة الاشياء وتركيبها التحتي وجوهرها بشكل افضل عندما ننظر اليها من خلال نقاط الاتصال، والوصلات، ونقاط الارتباط.

ومن المعروف في الفلسفة ان « الانبثاق » هو من اكثر الاشياء دلالة وتعليما. ونذكر على سبيل المثال اللحظة التي تنبع فيها الحياة من المادة، وتنبثق الانسانية من الحيوانية. ففي نقطة الأصل يختفي اهم ما يهمنا معرفته.

كم من المعلومات والدروس يمكن استخلاصها من تجربة واحدة تكرر وتعاد باشكال مختلفة طوال فترة الوجود كلها! هذا هو ولا شك المعنى الحقيقي للقول الشهير: «مع التفكير به دائما». لنفكر بهؤلاء الرسامين الذين عالجوا دائما الفكرة نفسها، ورسموا الوجوه نفسها او الشجرة نفسها، والذين فتشوا بشكل يائس داخل المفرد المطروح امامهم بكثرة، كيما يجدوا العام الذي يمثل الهدف النهائي للذكاء.

ولإيجاز ما قلنا، فاننا سنترجم هذه النظرات النظرية الى وصفات عملية:

- ترك حقل الدراسات مفتوحا باستمرار، والنظر دائما نحو اوسع الكليات، والقيام بتقليد متزايد لنظرة وعي مطلق يرى كل شيء بآن واحد.

- العمل في هذا المجال لاختيار النقطة المحددة بالضبط، حيث ينبغي بذل الجهد الآني، وتوجيه الافضلية نحو اختيار هذه النقطة في نقطة التمفصل، نقطة العقدة، نقطة الاتصال التي تمثل النقطة العضوية، المنظمة، البؤرية. النقطة التي يؤدي الامساك بها والحصول عليها الى كشف الباقي او استسلامه بنفسه.

---

(١) لقد طرحت هذه المبادىء في كتاب تقني بعنوان: Lexistence temporelle ص. ١٢٩.

- نقل الحقيقة الملاحظة في مجال خاص من مجالات التجربة الى مجالات العالم الاخرى، مع التذكر بأن «الطبيعة كلها تقلد نفسها» وانها محكومة بقانون التشابه والتناسق والتماثل مع نفسها[١].

وسأعود الآن الى الانتقال من الفكر الى الحرب.

انني لا أجد أية صعوبة في رؤية التشابه، طالما ان العمل كله يتمثل هنا ايضا في اختيار نقطة الهجوم او الدفاع، والثبات فيها كما لو ان نظام المعركة كله متعلق بها. ويتطلب هذا الامر اختيار نقطة الجهد هذه بشكل صحيح، بحيث يكون للنتيجة المحققة فيها صدى داخل مكان المعركة والحرب وزمانها، وبحيث تهيء هذه النتيجة بشكل متزايد امكانية تحقيق النجاح النهائي، عن طريق استغلال قوي للنجاح الأولي.

ويتعلق بالمرحلة التركيبية الاولى، السعي بلا انقطاع لرؤية اوسع الكليات. بيد أن هذا العمل الصعب بالاصل في مجال حقل المعركة او الحرب، يغدو اشد صعوبة في مدتها، لأنه اذا كان المرء بحاجة الى كثير من الذكاء والشجاعة كيما يتقبل تجاهل او ضياع هذه الميزة او تلك في حقل المكان (خط، مدينة، مقاطعة، بلاد، قارة...) فانه بحاجة ولا شك الى ذكاء اشد وشجاعة اكبر حتى يقرر القبول بان يكون مهزوما خلال فترة طويلة من الزمن، قبل وقوع اللحظة النهائية التي تعتبر وحدها حاسمة.

فاذا ما قارنا الفكر في ممارسته الفلسفية وتطبيقه الاستراتيجي، إمكننا القول ان خطر المفكر بشكل مجرّد هو انه يتأخر كثيرا داخل الافكار العامة او داخل التركيبات السابقة لأوانها، في حين يميل رجل الحرب بطبعه إلى الانبهار بحدث جزئي، سعيداً كان ام غير سعيد.

ان هذه النظرات مطروحة في مؤلفات فوش: **المبادىء، والارادة، والمذكرات.** وهي تظهر صفته الرائعة المتمثلة بأنه فكر مليا بما كان عليه ان يفعله بعد ٢٠ سنة، مجسدا خلال وجوده هذه القدرة الغريبة لفكر عميق سمح له بأن يتنبأ لنفسه بنفسه. لأنه عندما شرح في العام ١٨٩٥ مثلا، في كتابه مبادىء، فكرة هجوم بونابرت في ديغو بتاريخ ١٤

---

1. Le travail intellectuel p. 35-59.

نيسان (ابريل) ١٧٩٦[1]، وعندما شرح مناورة آلفينسليبن وفريدريك شارل في غرافلوت بتاريخ ١٦ آب (اغسطس) ١٨٧٠[2]، كان شرحه تصوراً مسبقا (واعلانا غامضا) لما كان عليه ان يقرره في ظروف مشابهة، كظروف ١٩١٤ مثلا، في مستنقعات سان غوند، او معركة ١٩١٨[3].

انه لمما يسترعي الاهتمام في خط تفكير فوش، قدرته على التقاط هذه الكليات الكبيرة، واختيار النقاط التطبيقية بالنسبة لهذه الكليات التي يتم النظر اليها في المجال الرحب، وفي المدة الزمنية الطويلة بصورة خاصة. وعندما انتقد فوش عمليات لودندورف ضده في العام ١٩١٨، ذكر بانه لم يكن لهذه العمليات أية خلفية، وان تفهم مجمل الامور شيء ضروري لا يمكن الاستغناء عنه، لان انعدام هذا التفهم لا يوصل الا الى نتائج جزئية[4]. ثم كتب عندئذ هذه الصفحة الرفيعة المكثفة التي ينبغي ان تكون دليل كل عملية يقوم بها الفكر (يمكننا ان نذكر هنا ايضا، بان الافكار العميقة تبدو دائما اكثر انطباقا على الوضع الحالي كلما تقدم الزمن. لذا فان افكار فوش قد تنطبق على الوضع الحالي اكثر من انطباقها على الوضع الذي كان قائما في العام ١٩١٨).

«ان الحروب العظمى، وخاصة عندما تشترك فيها عدة امم متحالفة، والمعارك الكبيرة التي تضمها هذه الحروب، لا يمكن ان ينظر اليها من وجهة نظر كل مجموعة من مجموعات القوات المشتركة فيها. فهي تشكل شيئا مجملا، وكلاً مركباً من اعمال مترابطة موزعة دون شك على مساحات شاسعة وفترات زمنية طويلة بيد ان الحفاظ على توافقها ضروري للوصول الى نتيجة نهائية ملائمة. وحتى لو ان احد هذه الاعمال تعثر، او ان مجموعة من مجموعات القوات تعرضت بصورة خاصة لكثير من المتاعب والمآسي، فان على القيادة العليا رغم ذلك ان تحافظ على خطتها العامة قبل كل شيء، في الوقت الذي تسعى فيه الى دعم العمل المتعثر او اعادة القيام به، دون ان يؤدي ذلك الى تعديل الخطة او التخلي عنها. ان المتاعب التي تتعرض لها في فترة من الفترات مجموعة قوات، حتى لو كانت

---

(١) مبادىء، ص ٨٦- ٩١.

(٢) ادارة، ص ٣٣٩- ٣٥٥.

(٣) انظر كتاب ويغان «فوش» ص ٦١- ٧٢، ١١٨، ١٧٧- ١٧٩، ١٩٣- ٢٤٣.

(٤) مذكرات، الجزء الاول ص ٢٤٨، الجزء الثاني ص ١٢٦، ١٦٢.

هذه المجموعة جيشا كاملا، غير كافية لتبرير الاضطرابات في مجمل العمليات التي تقوم بها الجيوش الاخرى او في حماية مصالح الحلفاء. عندها تظهر مواقف معنوية تصلح للقيادة على مختلف المستويات. وتتمثل هذه المواقف في انه كلما ازداد وضع قائد القوات اضطرابا، وغدا هذا الوضع منذرا بالخطر، وأضحت اللحظة اشد خطورة، كلما احس هذا القائد بأن الواجب يفرض عليه ان يدفع عملياته ويبقيها بأي ثمن على الاتجاه المرسوم للخطة الاجمالية، دون ان يتأثر بضباب وضعه الخاص، او بالاخطار المحدقة به، على اعتبار ان وضعه سيعود دائما الى حالته الطبيعية بفضل نجاح مجمل العمليات. ومن واجبات هذا القائد على العكس، ان يجد في خياله وعقله الوسائط التي تسمح له بالحفاظ على قطعته حتى نهاية الازمة. ولقد برر انتصار المارن هذه العقيدة. وليس علينا الا ان نعود اليها»[1].

بمثل هذه الروح كتب فوش من قبل: «ليس النصر محصلة نتائج متميزة وجزئية، ولكنه محصلة جهود بعضها ظافر، في حين يبدو البعض الأخر خاسراً، ولكنها تتجه كلها رغم ذلك، نحو الهدف نفسه...»[2].

---

(١) مذكرات، الجزء الاول، ص ١٧٠.

(٢) مبادىء ص ٢٦٤. عبر فوش في بعض الاحيان عن الفكرة نفسها بشكل مألوف اكثر، ولكنه اقرب الى التجربة المعنوية. ولقد شددت في هذا النص غير المعروف جيدا على الجمل القادرة على تعليم المفكر: «ان التعرض للهزيمة خلال اربعة ايام او خمسة ايام او اكثر من ذلك امر قاس وقاس جدا بالنسبة الى الرجال. لذا، ولكي يكون المرء مطاعا، فان عليه ان يجد معزوفة جديدة، لحنا جديدا امام القطعات. لأن اللحن الذي عزفه في اليوم الماضي قد استهلك بالنسبة اليها، ولم تعد تتأثر به، وهي تقول عنه «بسبب هذا اللحن تعرضنا للهزيمة. اننا لن نتابع بعد الآن». ولكن من الضروري ان تتابع القطعات عملها والا ضاع كل شيء». وهنا ينبغي على القائد ان يبحث عن حل. وان يفكر بعمق دون ان ينشغل لحظة واحدة بانفعال العمل الذي يعيشه. وعليه ان يتابع عمله، وان يهتم بعدم تبديل اتجاهه، وان يعطي هذا الاتجاه شكلا جديدا يجعله يبدو وكأنه عملية جديدة. وبهذا فقد يعود الرجال الى طاعته. ولا يقولون بعد ذلك: «لقد تلقينا ضربة، ولن نتابع بعد الآن» ويتم البحث عندئذ عن غرض اخر، عن وسيلة فكرية ملائمة، تخفي الارضية نفسها. وتكون النية المعنوية نفسها بدون تغيير، ولكن الوسيلة المستخدمة لا تدل على ذلك. وتبقى فكرة المناورة نفسها، ولكنها تكون خفية غير ظاهرة للعيان. عندها نجد ان الجندي الفرنسي الذي يحب التغيير يتقبل الفكرة التي تبدو له جديدة، ويطيع بشجاعته المعهودة وشعوره الوطني الطيب، ويقول: «اننا لم نجرب بعد هذا الاسلوب». ولكن العدو قوي، وهو لا يتخلى عن هدفه الا اذا تجاوز عنادنا عناده. ولذا فان من الضروري ان نجد بصورة مستمرة اشكالا مختلفة لادامة استمرارية العمل الحربي. هل تفهمونني؟ ان فكرة «اريد» لا تكفي ابدا. ان من الضروري تأمين استمراريتها باشكال متعاقبة. ثم يأتي بعد ذلك، ورغم كل شيء، لحظة يبدو فيها الوضع معقدا، وتتحطم فيها الوسائط، ويصبح «المعطف البائس مخروقا من كل جهة». ان هذه الفكرة تمتلككم كليا. ان من الواجب

واذا كان من الصعب على المرء ان يحافظ على تركيبته الخاصة خلال العمل، فان هذا يعود الى ان ظروف المعركة غير ملائمة لممارسة هذه القدرة على التركيب. ويلاحظ كلاوزفيتز «ان سببا من اسباب التشويش ناجم عن ان معرفة الاحداث لا تأتي دفعة واخدة بل بصورة متتالية»(١) ويمكن القول ان الهزيمة تأتي احيانا من كوننا نعتبر انفسنا مهزومين بصورة مبكرة، على حين ان مدة معركة او حرب، هي- كالوجود الانساني- مدة طويلة وبطيئة ومجزأة ومتطورة، مدة قابلة للايجاز والتراكم، ولا تأخذ معناها الكلي الا في لحظتها الاخيرة. وتستطيع ارادتنا، كما سنرى فيما بعد، تغيير هذا المعنى في اخر مرحلة من مراحل العمل الحربي، فلقد قررت الساعة الاخيرة، وربع الساعة الاخير مصير معارك عدة. بيد ان الفكر والارادة عند بني البشر قوتان لجوجتان لا تعرفان الصبر، وعلى المرء ان يملك فعلا زمام نفسه ليفرض عليهما هذه التأخيرات الضرورية»(٢).

وبعد مواجهة معضلة الفكر المبدع والفكر الظافر في اعلى مستوى عموميتهما. فإنني سأنزل الآن الى اساليب اشد خصوصية.

انني اقصد هنا ثلاثة من هذه المواقف الذهنية، وهي تتطابق مع الاعداد الثلاثة

= ان تستمر البقايا ايضا بأي ثمن، وتأمين استمرار البقية الباقية من المشاة والمدفعية والخيالة.. وترقيع خروق المعطف على قدر الامكان. وتكون الفكرة الموجهة اقوى من اي وقت مضى. لقد قلت لكم بانه كلما زاد عدد الخسائر، كلما فرضت هذه الخسائر واجبا ضروريا. وعندما تكون القوات غير كافية، وتحت ثقوب المعطف المحروق، فاننا نعمل بواسطة البقايا، ويتجه كل شيء نحو الخط الذي احتفظنا به سريا تحت التبدلات الظاهرية للاساليب. ثم يأتي يوم يتحقق فيه النصر رغم ثقوب المعطف، او بعد حصول الثقوب في المعطف». من كتاب فوش، بقلم آ. دبيرريكور، ص ٢٢٤- ٢٢٩.

ويمكن مقارنة هذه الاقوال مع اقوال نابليون: «ان مصير المعركة عبارة عن نتيجة خطة او فكرة. ويتم التقدم بتركيبات مختلفة، ويحصل التشابك. ويتقابل الطرفان فترة من الزمن، ثم تظهر اللحظة الحاسمة، وتلمع شرارة معنوية، وتنجز اصغر القوات الاحتياطية المهمة».

(١) في الحرب الجزء الاول، ص ٦٩، قال الامبراطور: «فاذا وضعنا جانبا ضرورة الخضوع لقوة الطبيعة، فان ساعات النوم هذه تقدم لقائد الجيش الكبير ميزة ثمينة تتمثل في انتظار تقارير وسير عمل فرقه كلها بهدوء، بدلا من ان يترك نفسه يتأثر بغرض واحد يشهده بنفسه».

(٢) Le travail intellectuel P. 65-73.

الاولى: **الوحدة والثنائية والثالوث**[1] ولقد بدا لي بالفعل ان من المفيد، عند الرغبة في اثارة جوانب صعوبة من الصعوبات، او حل مسألة، اعطاء الفكر عن طريق الممارسة ثلاث عادات، تقوم اولاها على **الجمع**، وتقوم الثانية على **التفريق**، على حين تقوم الثالثة على **تجاوز الصعوبات**، وسأحاول فحص هذه السبل الثلاثة من حيث علاقتها مع فن الحرب.

ليس من التكرار في شيء، ان نعود الى ذكر الفكرة البسيطة القائلة بان أساس عملية التفكير (في السلم والحرب) يقوم على التوفيق بين الحد الاقصى من التنوع والاختلاف، والحد الاقصى من الوحدة والاندماج. ويتعلق الامر هنا بالحصول على الوحدة، لا الوحدة الفارغة التي اسماها افلاطون في كتابه «بارمينيديس» **الواحد ـ واحد**، بل الوحدة المليئة الدسمة المتجانسة، التي اسماها افلاطون **الواحد ـ كائن**. ويمكننا القول ان هناك علاقة تربط هذه القدرة على التوحيد، مع القوة والتجدد، حسب قول كتاب **الحكمة**: «بما انها واحدة، فهي قادرة على عمل كل شيء. وببقائها داخل ذاتها، فانها تستحدث كل الاشياء»[2].

ان فكرة الوحدة تقود الى طرح السؤال الاساسي التالي: ما هو المقصود قبل اي شيء آخر؟ ما الذي يهم قبل كل شيء؟ ما هو العنصر الذي ينبغي ان اضحي من اجله بالعناصر الاخرى كلها اذا اقتضى الامر، نظرا لان هذه العناصر اقل منه قيمة؟[3].

لقد اعتاد العقل الفلسفي على البحث عن هذا العنصر الذري، البؤري، المولّد.

---

(١) في كتاب الفن الجديد للتفكير Novel art de penser ص ١٤٧ ـ ١٥٣، أوردت هذا النص لاوغوست كونت: ان تقييم أي وجود بشكل ديناميكي يقدم دائمًا ثلاث حالات متعاقبة: بداية، ووسطاً، ونهاية. أما إذا قيم هذا الوجود بشكل ستاتيكي (جامد)، فإن تكوينه ينجم من تلاحم عنصرين متعارضين ولكنهما قابلين للمقارنة. بيد أن النظر الى الوجود بمجمله يظهره دائمًا وكأنه واحد. لذا فإن كل بناء لا يأخذ بالاعتبار وحدة المبدأ، وكل تركيب أكبر من ثنائي، وكل تعاقب يتجاوز ثلاث درجات، عبارة عن عمل غير مجد، إذا كانت العملية غير مبنية بشكل جيد أو غير مكتملة (اسلوب السياسة الايجابية).

(٢) كتاب «حكمة النبي سليمان»، الجزء السابع، ٢٧، انظر الجزء الثامن، ١، ٢، ٤، ٩، ١٤. ويمكن تطبيق هذه الأقوال على جان دارك خلال اجراء طقوس العبادة في الكنيسة الرومانية.

(٣) انظر في كتابي «باسكال وليبنيز» العلاقة بين هذه الطريقة من جهة، وحساب التفاضل والتكامل من جهة أخرى ص ٣٣ ـ ٤٠. لقد شاهدت في أحد الأيام قائداً كبيراً ذاهباً إلى مؤتمر ومعه محفظة فقال لي وهو يضحك: «هل تود أن تعرف ماذا يوجد داخل هذه المحفظة؟ (وفتح المحفظة)، ليس فيها شيء، ان ادارة مؤتمر ما تتطلب من المرء أن يكون سلّم القيم واضحا أمامه. وهذا ما أفعله، وكل الوثائق يمكن ان تعيقني».

وهو يدعوه هنا **الجوهر** ويقابله **بالاحداث**، ويسميه **المطلق** ويقابله **بالنسبي**، ويسميه هناك **الضروري** ويقابله **بالعرضي**. او يدعوه ايضا **الغاية** ويقابله **بالوسائل**. وهو يفترض دائما وجود مسافة لا متناهية بين كل تعبير والتعبير الذي يقابله. وليس الحدث شيئا يذكر امام الجوهر... الخ، وليست الوسائل شيئا امام الغاية.

هكذا يتم الاستعداد «للتضحية».

وما **التضحية** في الحقيقة سوى العملية التي نقبل من خلالها رؤية بعض الوسائل تختفي او نقبل تعديل الوسائل بشكل جذري، بعد ان نفسهم بوضوح عدم التناسب بين **الهدف** المنشود **والوسائل** المتوافرة. وتتحكم فكرة **الوحدة** بهذه الخسائر وتلك التغييرات، وتسمح بتقبلها بكل ثقة، نظرا لان الهدف وحده هو المهم، ولا يرتبط بالضرورة بهذه الوسيلة او تلك؛ فكل وسيلة عرضية ومؤقتة وقابلة للتبديل.

اننا لنجد هنا فكرة فريدريك الثاني التي اوردها فوش: «يجب ان نعرف كيف نخسر عند اللزوم، وكيف نضحي بمقاطعة (ان من يود الدفاع عن كل شيء لا ينقذ شيئا)...»[1].

ونلاحظ بالمناسبة، ان من يعرف بم يهتم قبل اي شيء اخر، والى أي غرض ينبغي عليه إن يوجه رأس حربته، يخفف عن نفسه نصف عبئه. واثقل اعباء النفس المسؤولة عن الآخرين، والمسؤولة ايضا عن نفسها، هو عدم معرفة ما ينبغي عمله. ان من يختار جانبا محددا يمكن ان يتأثر من خسارة ممتلكاته او من مقاومة الارادات المعادية، ولكنه لن يتأثر بعد ذلك من الغموض. في اليوم الاول لمعركة ڤردان، ذكر جوفر لبيتان ما يتطلبه منه، ثم قال له: «لا بد انك الآن مرتاح جدا». وبالاضافة الى ذلك، فان ما يدعى بالفكر ليس سوى ميزة الانتباه، ولذا فان مقارنة الانتباه برأس الحربة امر لا يخلو من الصحة (كان ديكارت يقول: acies mentis)، كما ان تشبيه الانتباه بمخروط مقلوب امر صحيح. وكلما تركز الانتباه وعبأ طاقاته، كلما كانت قوته اكبر.

لقد قال نابليون: «يوجد في اوروبا كثير من الجنرالات الجيدين، ولكنهم يرون من

---

(1) فوش، مبادىء، ص ٤٩، اقرأ ايضا ايزنهاور، حرب صليبية في أوروبا ص ٢٧١.

الاشياء أكثر مما ينبغي. اما انا، فانني ارى الكليات واتعرض لها، وكلي ثقة بان التوابع ستسقط لوحدها» . . . «يصبح كل شيء بسيطا، وسهلا ومحددا، ولا يبقى اي شيء غامضا، عندما نحدد بعمل دؤوب طويل، وبالسلطة العليا (الالهام)، النقطة المركزية لبلدٍ ما. ونشعر كم يمنحنا وجود مثل هذا المركز من اطمئنان وبساطة»[(١)]. وقال نابليون ايضا «اننا لا نحقق النجاح في الحرب بفضل عدد كبير من القطعات، بل نحقق ذلك بفضل قطعات منضبطة حسنة التنظيم».

ان عادة الفكر المبنية على الارتباط برؤية الهدف، والحفاظ على الفكر حرا لتحريك الوسائل، تقود رجل الحرب الى تقييم الوسائل الضرورية والوسائل الثانوية من بين مجمل الوسائل المتوافرة. وهي تنصحه دائما بان يفكر بعمق، محترما التمييز بين المخططات، ومميزا بين الجوهري والاضافي. الا ان الشكلية القانونية، وكسل الفكر اللامسؤول، والرغبة الادارية العسكرية اكثر مما ينبغي في التقسيم والتنضيد، واعطاء الورق افضلية على الحياة، تدفع الفكر البشري نحو خرق قاعدة الجوهري الوحيد. «لماذا تطلق النار؟ - لاسباب ثلاثة يا سيدي، اولا لانه لم يكن لدينا مدافع»[(٢)].

وبالطريقة نفسها، فان الحدس الذي يتم خلال التفكير، ويتوافق مع الهدف، يعبر عن نفسه باشكال ومخططات ومفاهيم لا بد من تعديلها ومضاعفتها لترجمة بساطتها العميقة. وغالبا ما تختلط احدى وسائل التعبير هذه مع الحدس نفسه، الامر الذي يشل حركة الفكر، لانه يضع الفطنة البشرية محل الحقيقة[(٣)]. وقد تكون فكرة تقسيم المهمة «الى الاجزاء التي يمكن الحصول عليها، من اجل حل المهمة بشكل افضل»، وفكرة «اجراء مراجعات عامة وكاملة في كل مكان» ناجمتين عند ديكارت عن مروره داخل معسكرات

---

(١) الى الجنرال ديجـان، ٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٠٦ مراسلات، الجزء ١٢، ص ١٦٣، انظر ايضاً أقوال كلاوزفيتزعن المعطيات الدائمة لاجتياح فرنسا، تلك الأقوال التي ذكرها فوش في ادارة، ص ٩«ولا يمكن بصورة عامة السيطرة على دول كبرى إلا عن طريق التجزئات السياسية، ولقد كان هذا المبدأ صالحاً للتطبيق على فرنسا بشكل خاص».

(٢) ان الهزلي والمأساوي العسكريين يكمنان في هذا الاحلال الدائم لفن الادارة محل الحقيقة. ويذكر فوش مثال فرقة الأمير لويس البروسية التي جابهت المارشال «لان» في ٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٠٦، ويقول ان تلك الفرقة التي لم يكن لديها علف، تلقت خلال المعركة امراً، «بأن تكون الجعالات متساوية بكل عناية».

(٣) انظر في هذا المجال، بيرغسون la pensée et le Mouvant ص ١٣٥ - ١٥٣ وص ٢٠١ - ٢١٨.

الجند. ذلك لان الجيش يقسّم ويجزىء دائما المكان والزمان، ويعلّم توزيع الواجبات. والخلاصة ان هدوء رجل الحرب يأتي من معرفته بحدوده: العدو، الجوار، القطاع الذي ينبغي الدفاع عنه، الخط الذي لا ينبغي التراجع بعده. ويعلمكم الجيش دائما تقسيم الاشياء، لدرجة انه يطلق على «الوحدة» الاساسية فيه اسم الفرقة (Division)(١).

بيد ان التقسيم (Division) المفيد للمفكر، ليس في نظري تقسيما اعتباطيا. ومن المؤكد ان من الممكن تقسيم اي موضوع الى جزئين او ثلاثة او اربعة اجزاء بغية حله بشكل جيد. وهذه عملية سهلة طالما ان المرء قادر على التفكير.

لقد علّم افلاطون ان التقسيم الصحيح هو التقسيم الى جزئين. ومن الجدير بالملاحظة حقا ان المفاهيم التي نستخدمها عادة هي مفاهيم مبهمة، مختلطة، غير اصيلة، تغلف تحت مظهر الوحدة مفهومين متباينين. وهي اشبه ما تكون بالبلورات المتحدة بشكل كاذب، والتي يطلق عليها علماء البلورات اسم **بلورة مركبة كاذبة**. وهي مشكلة عادة من بلورتين غير متناظرتين، وملتصقتين مع بعضهما، ولا بد من فصلهما.

ان هذا التمرين، الذي يمكن تسميته تمرين التمييز، يساعد الى حد بعيد في مجال الافكار، ومن السهل ان نرى ان العبقرية الخلاقة استخدمته باستمرار. ولقد ميز اريسطو بين **القوة والفعل**، وبين **الاستقراء والاستنتاج**، وبين **الحركة والطاقة**... الخ. وميّز باسكال بين **الغريزة والعقل**، وبين **الهندسة والدقة**... الخ. كما ميز بيرغسون بين **الذاكرة الصرفة والذاكرة-العادة**، وبين **الزمن والمدة**، وبين **الدين الجامد والدين الديناميكي**.. الخ. ويسهل علينا ان نبين ان الكلمات المعهودة جدا، والتي نستخدمها كل يوم ونعتقد انها بسيطة، هي في الحقيقة كلمات مزدوجة. وينطبق هذا القول على كلمات مثل: **طبيعة، وعقل، وحب**، وامة. واذا اخذنا كلمة **طبيعي** على سبيل المثال، وجدنا انها تعني كل ما يأتي وفق طبيعة الاشياء، وخارج كل قانون (عندما نتحدث عن «طفل طبيعي»)(٢)، كما تعني في الوقت نفسه، وبشكل معاكس، كل ما لا يأتي من داخل الاشياء، وما يحكم الاشياء كقانون اعلى (مثل تعبير «قانون طبيعي»)(٣).

---

(١) ان كلمة Division تعني باللغة الفرنسية قطعة عسكرية تدعى «الفرقة»، كما تعني «التقسيم».

(٢) طفل طبيعي (enfant naturel) هو الطفل الذي تلده امه دون زواج قانوني او شرعي. (المعربان)

(٣) القانون الطبيعي (Loi naturelle) هو القانون المتطابق مع نظام الطبيعة ومع طبيعة الاشياء. (المعربان).

ويصعب عليّ ان اعرف ماذا يمكن ان تقدم هذه الطريقة عند تطبيقها على المفاهيم الاساسية للفن العسكري. ولكن بوسعنا منذ الآن ان نلاحظ التمايزات المثمرة بين **الاستراتيجية والتكتيك**: هذه التمايزات التي تحلل الفكرة السهلة للمناورة، واذا ما درسنا مفاهيم لا تزال غامضة في بعض جوانبها مثل الهجوم، والدفاع، واقتصاد القوى، وحرية العمل، وجدنا دون شك تمايزات مفيدة قادرة على دفع مسألة التأمل بالحرب الى أمام. وعلى كل حال، فان من المفيد التفكير بالتمايز بين الشيوعية والجماعة، وبين النظام والديكتاتورية، وبين (البلفة) والتهديد، وبين الدعاية والتأثير، وبين الحرية والاباحية، وبين العبودية والطاعة... وكل كلمة من هذه الكلمات معاكسة للاخرى تماما.

في العام ١٩٣٥، عندما كنت اتبع دورة في مدرسة الحرب، سمعت الحديث عن الاستراتيجية والتكتيك. ولقد بدا لي ان الكثيرين يستخدمون هاتين الكلمتين غالبا دون تمييز بينهما تقريبا. او على الاقل، ان البعض يرى ان الاختلاف بين الكلمتين هو اختلاف في المستوى، كالاختلاف بين الطريق والمسلك. وفي احد الايام طرحت السؤال على الجنرال ويغان فاجابني: «ليس الاختلاف (بينهما) اختلافا في المستوى، ولكنه اختلاف في الطبيعة. ان التكتيك يفترض ان القطعات موجودة في حالة التماس، وفي وضع محدد بالزمان والمكان. في حين ان الاستراتيجية تتطلب حرية توضع جميع القوات، في مجال زماني ومكاني واسع، بغية تحقيق غرض بعيد، هو على وجه التحديد وضع تكتيكي. لقد كان نابليون قبل اوسترليتز استراتيجيا، ولم يعد بعد ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٥ سوى تكتيكي[1]. وانني اعتقد بالاضافة الى ذلك، ان هناك شخصيتين لرجال الحرب، فبعضهم استراتيجي اكثر مما هو تكتيكي، والبعض الآخر تكتيكي اكثر مما هو استراتيجي. ولكن هذا لا يعني ان بوسع المرء دائما ان يتصرف وفق شخصيته. فلقد كان فوش، رئيسي، استراتيجيا بارعا، ومع هذا، فانني اعتقد بأنه مارس التكتيك دائما. وحتى معركة ١٩١٨، فقد كانت في اطار التكتيك. ورغم كونها معركة تكتيكية، فقد أجريت وفق فكر اعلى، هو الفكر الاستراتيجي. ومن هنا تأتي عظمتها. وفي تموز (يوليو) ١٩١٨ رأيت فوش يوقف

---

(١) ان ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٥ هو تاريخ معركة اوسترليتز التي انتصر فيها نابليون على القوات النمساوية-الروسية. (المعربان).

هجوما في ذروه نجاحه، لينقل جهده الى نقطة اتصال الجيوش الفرنسية- البريطانية، لانه رأى ان هذه النقطة تمثل العقدة الاستراتيجية لمعركة تقوم بها قوات متحالفة. وكان هذا الامر فكرة استراتيجية.

«اما جوفر، فقد كان تكتيكيا بطبعه. ومع هذا فان انسحاب شارلروا ومعركة المارن كانا عمليتين استراتيجيتين تماما».

ان هذه الملاحظات الثاقبة، جعلتني افهم ان التكتيك والاستراتيجية يتلاءمان مع موقفين فكريين متمايزين، اي انهما يتلاءمان مع جوهري فكر وعمل حربيين.

ولكن ماذا نقول اذاً عن اللوجيستيك (الشؤون الادارية)؟ اننا نرى الآن فكر رجل الحرب يعمل حول تعريف اللوجيستيك. ولكن الا يمكن ايضاح المسألة بواسطة طريقة التقسيم على اثنين؟ والقول مثلا بان داخل عملية الفكر والعمل المسماة استراتيجية، والمعرّفة كما ذكرنا من قبل، يوجد وجهان متمايزان؟

ان هذين الوجهين هما اللذان يفصلان في جيوش كل الازمان، بين الهجوم او الدفاع من جهة، وتلبية حاجات المقاتلين من جهة اخرى. لان الرجل في القتال هو من جهة **شكل** (وهذا يعني انه يقوم بنشاطاته)، وهو من جهة اخرى **مادة**. ولذا فان من الضروري تلبية حاجاته من الذخائر والمؤن، وهذا يعود الى النشاط الذي كان يدعى في الماضي الادارة العسكرية. ولكن ازدياد المسافةَ بين الجبهة والمؤخرة بشكل لا متناهي، وتطور صعوبات الامداد والتموين وتعقدها الكبير، حوّلا الادارة العسكرية، التي كانت من قبل تجريبية، وجعلاها علما او تقنية على الاقل. وكان من الضروري اطلاق اسم على هذه التقنية. وكانت التسميات متشابهة. واخيرا ثبت اسم لوجيستيك. ويمكن القول ان اللوجيستيك هو جزء من فن الحرب يتعلق بالحركات: النقل، والامداد والتموين، والاخلاء، والمحافظة على الرجال وعتاد القوات. اي انه يتعلق بكلّ النشاطات التي تستهدف اعطاء القوات القدرة على الحياة والقتال في افضل الظروف. «وهو بشكل اكثر ايجازا، الادارة المنهجية لمختلف النشاطات الرامية الى توقع وتلبية حاجات القوات»[1].

---

(١) انظر آ. ديسانس، المفوض الرئيسي للبحرية، «المجلة البحرية»، عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، ص ٦١

واذا كان الامر كذلك، فان لدينا صورة ثنائية مقسومة على اثنين. وهي صورة بسيطة وطبيعية، مبنية على طبيعة الاشياء نفسها.

مناورة	زمان- مكان محدد	شكل= معركة مادة= (ي)
	زمان- مكان محدد	شكل= (م) مادة= لوجيتسيك

ويبين هذا الجدول ان على اللغة ان تتابع تطورها. ومن الضروري ايجاد كلمة جديدة للتعبير عن العمليات العسكرية طويلة المدى، التي تمتلك كل الزمان والمكان، وليس زمانا ومكانا محددين بوضع قتالي (ي). ومن الضروري ايضا برأيي ايجاد كلمة جديدة للتعبير عن اللوجيستيك الاصغر الذي يعد لقتال ذي مستوى تكتيكي (م).

ولن نقع في خطأ كبير اذا ما طرحنا هذه القاعدة، او بالاحرى هذه النصيحة: «مهما كانت مادة تأملك، افحص الكلمات التي تقدمها لك اللغة، ولاحظ اذا كانت هذه الكلمات لا تمثل مفهومين متضادين بالاتجاه والمعنى. ولا تخش عندئذ من اعطائها مدلولين مختلفين، ومن رؤية ما اذا كانت الحقيقة التي تتأملها قد غدت اكثر وضوحا»[١].

❋ ❋ ❋

انني اود الآن بحث نقطتي الاخيرة، وهي التأمل بثالث طرق التفكير التي ميّزتها من قبل- اي الطريقة ذات الطابع الثلاثي- وتتضمن هذه الطريقة البحث قبل كل شيء عن تأكيد، ثم البحث عن نفي، والبحث اخيرا عن تسوية على مستوى اعلى من المستوى الذي تم فيه التأكيد خلال المرحلة الثانية. وتدعى هذه المراحل الفكرية الثلاث غالبا: مقولة، ونقيضة، ومركب. ويطلق على هذه الطريقة عادة اسم الجدلية[٢].

---

(١) Nouvel art de penser P. 81- 118.

(٢) من اجل الجدلية بشكل عام، انظر الفصل التالي.

انكم لا تجهلون ولا شك الاهمية التي احتلتها الجدلية في الفكر المعاصر. ويمكن القول انها غدت كل الفلسفة تقريبا عند هيغل واتباعه (وأهمهم بالنسبة الينا هو كارل ماركس).

لقد رُؤيت الجدلية بشكل غير واضح تماما من قبل «افلاطون» و«باسكال»، واستخدمها «كانت» قبل ان يجعلها «هيغل» منهجية. ويصح القول انها طريقة طبيعية بالنسبة الى الفكر البشري، وخاصة عندما تحاور وتحفظ (ان الفكرة الوحيدة هي في الوقت نفسه حوارا داخليا، وحديثا مع النفس). وتتمثل سمة مثل هذا الحوار، في عدم طرح فكرة لا ننوي ان نطرح الفكرة المعاكسة لها، لا كسبّة أو حماقة، بل كامكانية جدّ معقولة. هذه هي صعوبة المحادثة: قبول الرأي المعاكس، والاستماع، والموافقة جزئيا على ما يقوله الطرف الآخر، والبحث عن الحقيقة الكامنة في فكرة الخصم بغية اخصاب فكرتنا وجعلها تتجاوز نفسها.

عندما اود تعليم طلابي كيفية القيام بعمل فكري غير مبهم وغير مسطّح، فانني اعطيهم النصيحة التالية: «مهما كان الموضوع الذين تودون كتابته، فان عليكم ان تبدأوا بخلق خصم، شريطة ان يكون خصما ذكيا جدا. ثم تتخيلون انه يدافع عن فكرة مضادة لفكرتكم بكل هدوء، وبحجج جيدة، وبفهم وذكاء». وهذه عملية صعبة، اولا لأن خلق خصم غير هزلي، يتطلب التخلي عن العادة الكسولة التي تدفعنا الى تخفيض مستوى من يعارضنا حتى نتغلب عليه بسهولة. والسبب الثاني، هو أنه اذا نجحنا في تجاوز هذه الخطوة الاولى، وخلقنا هذا المعارض القوي، تعرضنا لخطر الوقوع في الشك، نظرا لأننا سنميل الى الاعتقاد، بان من الممكن بالنسبة الى المسألة المطروحة دعم الافكار المؤيدة والمعارضة بموهبة متماثلة وبمعقولية متماثلة. ولكن القول بأن كل شيء صحيح يقود الى القول بأنه ليس هناك اي شيء صحيح. وهذا هو موقف **السفسطائي**.

وليست الصعوبة هنا كامنة في خلق المعارض، ولكنها تكمن في عدم ترك انفسنا نتعرض للهزيمة على يد هذا المعارض، كما تكمن في عدم التصارع معه وسط شكل من اشكال اليأس. وانني ارى ان الجدلية الحقيقية هي الافادة من هذا المعارض، لرفع حقيقتنا الى حالة اكثر تفهما، وفق قول لاكوردير: «انني لا ابحث عن اقناع خصمي بالخطأ، بل

ابحث عن الاتحاد معه في حقيقة اعلى» . ويمكن بالفعل ان نطلق على هذا اسم **الانتصار**، طالما انه يؤدي الى جعل الحرب تنفتح على هذا المجال الأسمى الذي ندعوه السلام(١)

انني اصل هنا الى جوهر الفكرة. اذا كانت هذه الطريقة حقا هي احدى اكثر طرق التفكير عمقا (ولعلها الطريقة العميقة الوحيدة من وجهة نظر المنطق)، فكيف يمكن الافادة منها بغية التفكير بشكل افضل في الحرب؟

والاجابة على ذلك، هي انني اعتقد انه على الرغم من المظهر، فان رجل الحرب هو في وضع افضل من وضع رجل الفكر بالنسبة الى استخدام قوة النفي. لماذا؟ **لاننا، نحن المهتمين بالفكرة المجردة ميالون بشكل او باخر لايجاد النفي وفق صورتنا وشبهنا**. وقد تقولون لي: كيف يمكننا خلق ما يناقضنا؟ لقد لاحظ اريسطو «ان المتناقضات هي من نوع واحد»: فالشيوعيون المعارضون كل المعارضة للفاشيين التوتاليتاريين هم ايضا توتاليتاريون بشكل معاكس . والملاحدة مؤمنون مرتدون. ان من السهل الانتقال من التأكيد المطلق الى النفي المطلق، كما يظهر ذلك غالبا تاريخ التحولات. ويتطلب الامر هنا شروحا مطولة. ولكنني اكتفي بدعوتكم الى التفكير بالطبيعة الآلية، السهلة، السطحية غالبا، التي تقدمها في حالات كثيرة الطريقة الجدلية: المقولة، والنقيضة، والمركب.

انظروا بالمقابل الى رجل الحرب، وادرسوا كيف يظهر **النفي** في حقل تفكيره. انه لا يحتاج الى البحث عنه بعيدا: فهو هنا يأخذ شكل **العدو**.

ولكن رجل الحرب لم يخلق هذا العدو وفق صورته. وهذا العدو شيء آخر مختلف عنه حقا. وبالاضافة الى ذلك، فان هذا العدو يعمل ما في وسعه بغية الاختفاء والمباغتة. وليس هذا العدو متحولا باستمرار، ومعاديا، وغامضا، ومموها فحسب، ولكنه معقد، ويعمل دائما لتحقيق الخداع.

إنه نفي حقيقي لا مصنوع، نفي متحرك، مخادع، خبيث.

ان هذا الامر الذي يبدو سلبية، هو في الحقيقة ايجابية كبيرة لتكوين الفكر. ان رجل

---

(١) انظر: Nouvel art de penser، ص ١١٩- ١٥٣

الحرب لا يجد نفسه في وضع «الجدلي» الذي يجلس في مكتبه ليخلق مفاهيم تقابلية. ولكنه يجد نفسه على العكس، في وضع «رجل العلم» الذي يجابه هذه المعطية المضادة التي تسمى التجربة.

ماذا تعلمنا التجربة في العلوم، التجربة المشابهة لهذا النفي الملموس، الحقيقي، ذي الوجهين، الذي يمثله حقل المعركة؟ انها تعلمنا ان الحقيقي لا يماثل ابدا ما كنا نتوقع. فالحقيقي دائما شيء اخر، او ان عقلانيته، على الاقل، لا تماثل تماما ما كنا ننتظر. ولذا فإن على العالم ان يمتلك فكرا فاعلا جدا بالنسبة الى الافتراضات المسبقة، ولكنه في الوقت نفسه، مرن جدا، حتى يتقبل رؤية فرضياته معرضة للنقض والمعارضة. وان لا يضطرب عندما تتحطم افتراضاته المسبقة تحت ثقل النفي، وان يكون على ثقة بأن تحطم القالب سيؤدي الى بلوغ حقيقة اكثر امتلاء.

وتتطلب مجابهة النفي الملموس الحر (كنفي القائد المعادي)، وجود شرطين:

اولهما، عدم ترك الفكر خاليا في اية لحظة، والعمل لافتراض نوايا العدو وفق المعلومات الواردة، وتكوين افكار هجومية وهجومية مضادة. أي التوجه نحو الموضوع، والدخول في اللعبة، لان البقاء في حالة العطالة والانتظار والخمول يؤدي الى خسارة كل شيء في الحرب.

أما الشرط الثاني، وهو شرط اصعب بالنسبة الى العالم مما هو عليه بالنسبة الى رجل الحرب، فيتمثل في امتلاك القسط الكافي من اللامبالاة والمرونة، حتى يكون رجل الحرب قادرا على تبديل أوضاعه أو مواقفه نفسها، اذا ما لاحظ امام النفي انه اخطأ، او اذا ما لاحظ ان النفي مخطىء، وانه يترك امامه امكانية الانتصار في نقطة من النقاط. وتأتي سهولة هذا الشرط بالنسبة الى رجل الحرب، من ان رجل الحرب يمتاز على العالم بأن النفي الذي يجابهه هو نفي فكر حر، لا نفي طبيعة الاشياء، لذا فان من المحتمل وقوعه في الخطأ. اذ يمكن للعدو مثلا ان يزج قواته بشكل خاطىء او يكشف نفسه، او يترك فجوة في ترتيبه القتالي، او يبدي بعض التردد في لحظة من اللحظات. ويلتقط رجل الحرب هذه اللحظة،

او هذا المكان او هذه الفرصة ليرج قواته الاحتياطية، ويخلق الحدث الذي يضمن انقلاب موازين القوى [1].

وبعد فهم هذا الامر، يمكننا ان نفهم معنى مبدأ من مبادىءفن الحرب، الا وهو «الاقتصاد بالقوى»، الذي طبقه نابليون وفوش وايزنهاور بشكل ناجح. ويتعلق بالنفي، في هذا المعنى. انه حتى لا يستطيع الخصم النافي (الذي يفاجئكم بشكل ما) ان يفاجئكم بشكل فعلي، فان من الضروري الحفاظ على امكانات سليمة للرد والحركة، حتى تستطيعوا بها مجابهة المفاجأة، وخلق وضع غير منتظر (من قبل الخصم).

هذا هو ما اطلق عليه احد علماء المنطق الذين وضعوا دراسة جيدة لمعركة مارينغو، اسم «اوضاع مضادة للاحداث العرضية المفاجئة».

واننا لنجد هنا من جديد مراحل الجدلية الثلاث. **فالفرضية** هي وضعنا ونوايانا، **والنقيضة** هي وضع الخصم ونواياه، ولكن المرحلة الاهم، هي مرحلة **المركّب** القادر على خلق عدم توازن يلائمكم. ويتم الحصول على عدم التوازن هذا عن طريق التغلب على النفي.

ونلاحظ هنا بالمناسبة ان الانتصارات التي تستحق الاعجاب اكثر من غيرها بدأت غالبا بلحظة هزيمة. وينطبق هذا القول على معركة مارينغو، ومعركة اوسترليتز، ومعركتي ١٩١٤ و١٩١٨. وانا اميل الى الاعتقاد، أن هذا يعود الى طبيعة الاشياء البشرية، التي تعتبر ان اكثر النجاحات ضمانا هي عبارة عن نكسات أُصلحت، وسلبيات قُوّمت ورفع مستواها. وهذا هو جوهر المسار الجدلي.

بيد ان هذا يتطلب من المصلح المُقوِّم، الذي يتمثل في القائد الكبير، فكرا لا يتمسك بمنهج محدد، ولا يصاب بالتحطم عند المفاجأة، ولكنه ينتظر الاحداث الصدفية

---

(١) يذكر فوش قول مولتكه: «انّ للنتائج المادية والمعنوية، في كل عمل هام، تأثيرا كبيرا لدرجة تجعلها تؤدي عادة الى انقلاب الوضع بشكل كامل، وخلق قاعدة جديدة لتركيبات جديدة. وليس من الممكن التوصل، بشكل مؤكد الى حد ما، الى تحديد مخطط عمليات، الى ابعد من اول لقاء مع كبد قوات الخصم. والرجل الغريب عن كل عمل يتعلق بالفن العسكري، هو وحده يمكن ان يظن ان تطور حملة ما يسير وفق مخطط محدد مسبقا.. الخ». (ادازة، ص ٢١). ومن هذه الزاوية، فان الحرب هي رمز الوجود البشري.

المفاجئة، نظرا لأن عبقريته تتسم بميزة مجابهة مثل هذه الاحداث. ويعرف هدا القائد الكبير ان النصر ينبثق بسهولة من وضع يبدو وكأنه هزيمة، لأن اكثر اللحظات حساسية بالنسبة الى الخصم، هي اللحظة التي يعتقد نفسه فيها منتصرا(1).

ان الايضاحات التي قدمتها تسمح باعتقادي،بالرد على سؤال يطرحه العسكريون بلا انقطاع في هذه الحقبة الزمنية المدعوة «بالسلم»،والواقعة بين حرب ماضية وحرب محتملة.

واذا كان العسكريون ينتمون الى الطرف المهزوم، فانهم يميلون الى القول بأنهم ارتكبوا خطيئة دخول الحرب بعقيدة الحرب السابقة. وينبغي الاعتراف بان رجل الحرب يجد نفسه في وضع صعب، فهو اما ان يدخل الحرب حاملا الدروس المستفادة من الحرب السابقة التي يعتقد انها دروس أكيدة، او يندفع في مغامرة مستخدما اساليب جديدة تماما.

ويقول البعض ان الاسلوب الثاني افضل من سابقه. وينقد انصار الذكاء رجل مدرسة الحرب (كلية الاركان) قائلين بأنه متخلف بالضرورة بما يعادل حربا، نظرا لان جوهر المدرسة هو العودة الى الماضي.

فاذا كان ما قلته الآن صحيحا، فانني اعتقد أنه سيساعدنا على تجاوز صعوبات هذا الخيار.

لنطبق افكارنا على الصعوبة المطروحة حاليا. ان علينا ان نشير قبل كل شيء بأننا لا نستطيع تحاشي التفكير بالتجارب القريبة جدا، دون ان يكون في عملنا شيء من عدم الحذر الذي يورثنا الدوار. ولكن من المهم ان نقوم بتحليل الحرب السابقة وفق طريقة كورنو العميقة المتمثلة في تمييز الصدفي في هذه الحرب عن كل ما يتعلق بجوهر الحرب.

ويدخل في اطار الصدفي مثلا: العدو، واستخدام الاسلحة، والعقيدة الرسمية المتعلقة بأهمية هذا العنصر أو ذاك وتفضيل هذه المناورة او تلك، والعقلية المتشابهة عند

---

(1) اقرأ: Vendryes كتاب «حول الاحتمال في التاريخ، مثال حملة مصر» ص ١٩٢- ١٩٧. ونعيد القارىء هنا الى الفصل الرابع من كتابنا، وهو الفصل الخاص بفلسفة الردع في العصر النووي.

المقاتلين في المعسكرين المتجابهين او العقلية الخاصة بمقاتلي كل معسكر، وحالة الصناعات والتقنيات- والصدف التي تتمثل في الاوضاع الاقتصادية والسياسية- واخيرا، هذه الصدفة الفعالة، وغير المتوقعة، والباقية على مر العصور، والمتمثلة بوجود قائد فذ. ويدخل في اطار الجوهر المبادىء السائدة وغير المتبدلة، النابعة من الحس الأعلى السليم، والتي تعتبر العنصر المدير لفن الحرب (١)

لقد كتب نابليون الى غوفيون سان سير «لا ينبغي اعطاء الافضلية لاي نوع من انواع الهجوم، بل يجب العمل وفق الظروف... وبعد زج اقرب القوات الى العدو، فإن من الضروري تركها تعمل، دون الانشغال اكثر مما ينبغي بحظوظها الجيدة أو السيئة» ولقد قال سان سير: «في آخر النهار، عندما يلاحظ (نابليون) ان العدو المتعب قد استخدم الجزء الأكبر من وسائطه التي جمعها، كان يعمل ما يدعوه بالحدث، وبهذه الوسيلة حصل على النصر بشكل دائم تقريباً» (٢).

بذلك يمكن تفسير هذا النوع من اللامبالاة الذي كان يظهره نابليون في المراحل الأولى من القتال، تاركاً للنفي الفرصة ليطرح ما عنده (٣)، ولينهك نفسه، ثم يزج الامبراطور بعد ذلك قواته ليحقق الحدث الذي هو في الحقيقة نفي النفي (٤).

---

(١) فوش، مبادىء، الجزءان ١٥ و٢٠. وانني انصح بقراءة كتاب:
Cournot /Considerations sur la marche des Idees dans les temps modernes (2 vol. Hatier)

(٢) ذكره فوش (مبادىء، ص ٢٧٧) ونلاحظ هنا ان عملية انزال على شاطىء محصن مسبقا تمثل المرحلة الاخيرة للمعركة، تلك المرحلة التي تنفي النفي بواسطة الحدث (انظر ايزنهاور، المرجع المذكور سابقا، الفصلان ١٣ و١٤). ومن هنا نلاحظ ان الحدث في الحرب هو كالواقع في الطبيعة، لانهما ناجمين عن الفرق بين التوقع والتجربة. ويعرّف فوش الحدث بقوله: «انه تجاوز توقعات الدفاع» (ذكره ويغان في كتابه «فوش» ص ١٧٨).

(٣) يقول الرائد غراسيه في كتابه عن فوش: «لقد احجم (فوش) عن تدعيم دفاع المارن في تموز (يوليو) ١٩١٨، لان ذلك التدعيم كان سيدفع العدو الى الاندفاع في هذا الاتجاه بكتلة قواته الاحتياطية. ترى ألم يفكر مدرب التكتيك العام في مدرسة الحرب (فوش) عندئذ بمعركة اوسترليتز، وبما فعله نابليون آنذاك، عندما أحجم عن تدعيم ميمنة جيشه بعد ان سحب دوفي هذه الميمنة باتجاه المستنقعات، جاذبا القوات الاحتياطية الروسية التي اخلت هضبة براتزن دفعة واحدة؟» (ص ٨٠).

(٤) «في كل مرة يبدو فيها الطرح غير ملائم، ينبغي فحص الطرح المعاكس، فاذا ظهر ان الطرح المعاكس خاطىء بشكل

ان صعوبة التمييز بين االعرضي والجوهري، ناجمة عن ان الجوهر يتجسّد دائما في الحدث العارض ويمتزج معه. وهكذا فان آلعنصر الابدي الصافي، الذي ادعوه روح فن الحرب، يختفي ويتموّه وراء العقليات، والصناعات، والتقنيات، وكلها عوامل صغيرة.

ان الذكاء المتوسط يقبع عادة في هذا المستوى الوسطي للعقليات والنظم، حيث لا تبدو المبادىء جيدا، وحيث تخُلط هذه المبادئ مع عقائد الحرب التي تتسم بأنها عابرة، تماما مثل الفنون، وآداب السلوك، والمواد، وأذواق العصر (الموضات)، والحس الجمالي نفسه [١]

ان الرجل الذي يتمتع بثقافة متوسطة، عادية لا يمتلك القدرة على فصل الروح عن الكلمة، ويقلد ما عمل من قبل، مع ادخال بعض التعديلات الثانوية عليه، وخاصة اذا كان هذا الرجل غارقا في العمل، ويود الحصول على تأييد لتصرفه. اما الرجل الحر الذي يتمتع بنظر ثاقب، والذي تم اعداده الفكري عن طريق الدراسة (الفلسفية) للماضي وللتاريخ، فانه لايتوقف عند المنطقة الوسطى. او أنه بالاحرى يكشف في هذه المنطقة عملية المبادىء، التي يعتبرها القادة الكبار «بسيطة». انه يرى هذه المبادىء وهي تعمل من خلال الاغطية العابرة التي ترتديها بسبب تجسدها المؤقت [٢].

وهو لا يترك هذه المبادىء معزولة داخل التجربة، ولكنه يتحقق منها بواسطة التماس المستمر مع الوقائع التجريبية، غير المتوقعة دائما، والتي تمثل في فن الحرب الحالات الملموسة المعاشة، واوضاع المعارك المعروفة في التاريخ، او الفرضيات المأخوذة في تمارين المناورة.

وهكذا نرى، ان المبدأ لا يُعرف ابدا من اجله هو، او بواسطته لوحده، ولكنه يعرف من خلال تطبيقه وبواسطة هذا التطبيق. وبهذا الشكل لا يبقى المرء في المنطقة الوسطى المختلطة التي يقف عندها معظم الناس.

ملحوظ، امكن تأكيد الطرح الاول بكل شجاعة، مهما بدا لنا هذا الطرح غير مفهوم». (باسكال، الفكر الهندسي، منشورات Pléiade، ص ٣٦٩).

(١) فوش، مبادىء، الجزء ١٥.
(٢) فوش، مبادىء، الجزء ١٥.

وتقود الحالة الى المبدأ الذي يسمح بحلها. والمبدأمتعطش للحالة التي يعبر فيها عن نفسه، بشكل مختلف وجديد دائما (انظر الشكل ١).

منطقة المبادىء البسيطة والدائمة
المنطقة الوسطى والمبهمة للنظم والتقنيات والعقليات
منطقة الحالات الملموسة غير المتوقعة

(الشكل- ١)

هذه هي الفلسفة الضمنية الموجودة في مؤلفات فوش، وهي فلسفة تمتّ لفلسفة باسكال بقرابة غريبة.

انه لمثال جدير بالاعجاب، وخاصة في عصرنا، حيث تتسارع التحولات بفضل التسارع الفائق للاكتشافات، وحيث يبدو ان من المهم، **اكثر من اي وقت مضى، عدم تقديس منطقة المفاهيم، بل استخراج الجوهر**. إنها مشكلة تطرح نفسها بالحاح في حقبة التحول، التي تعتبر نهاية عصر كامل، ومنطلق عالم جديد، في كل مجالات المعرفة والعمل: في السياسة، والاخلاق، والدين. وليس مجال الحرب سوى رمز مأساوي لما هو ماثل في كل مجال باشكال تبدو اقل الحاحا . وأقول انها **تبدو** اقل الحاحا، لاننا في الحقيقة نتعرض لخطر الموت، عندما نترك السياسة والدين والاخلاق تغوص في البنيات القديمة، دون ان نملك القدرة على استخراج جوهرها، وتأهيلها بشكل مسبق لتتلاءم مع عالم جديد.

وهكذا، وفي هذه الساعات التي تتغير فيها الحرب بعمق: لا عن طريق اعتماد هذا السلاح أو ذاك فقط، بل عن طريق اكتشاف اسلحة جديدة كل الجدة، واختفاء اسلحة كانت حتى الآن تقليدية (لقد رأينا اختفاء الخيالة، ومن يقل لنا ما إذا؟ . . .)، فانه يبدو لي ان من الضروري، اكثر من اي وقت مضى، **التفكير وفق هذه الطريقة المثلى**، التي لا تعتبر، كما قلت، طريقة من الطرق ولكنها **طريقة التفكير** نفسها، الطريقة التي تنبع من عملية العبقرية، والتي تبقى مع ذلك كامنة في التصرف الطبيعي للحس السليم.

ومن المفيد ان نقول بأن العقل الفرنسي، الذي يرفض بطبيعته المنهج الجامد،

ويمتلك حس المبادىء والميل الى الوقائع، ويبدي مرونة كبيرة امام الامور غير المتوقعة، هو عقل قابل للتلاؤم مع هذه الطريقة[1].

هناك منابع كثيرة للشجاعة. والمنبع الاول هو الاستعداد الطبيعي للحفاظ على رباطة الجأش وسط الاخطار المفاجئة. وهو استعداد لا يستطيع اي امرىء ان يعرف بأنه يمتلكه دون تجربة. وتتضمن الشجاعة ايضا، عند الرجل الذي خُلق للحرب، القدرة على كبت الخوف الطبيعي من الموت، أو كبت الخوف من تعريض الآخرين للموت بسبب اوامره. ولكن هناك منبعا ثالثا للشجاعة: هو الفكر. ان ما يدعو الى الاعجاب في شخصية فوش، وما يدعو برأيي الى تقييمه ضمن هذا الاطار العالي، هو انه فكّر مسبقا بما اضطر الى ممارسته في حقول المعارك. انه لم يتذكر عندئذ بوضوح كل ما فكر به، ولكن «هذا اعطاه الثقة»[2] كما يقول. ولم يكن هناك اي تصرف ابن ساعته، لان الفكر سبق العملية بمدة طويلة. واننا لنجد هنا من جديد الفكرة القديمة المنسية كثيرا رغم صحتها، وهي: ان بين الفكر والعمل مما ينبغي رعايته اولا، وهو الفكر.

والمقصود هنا الفكر الحقيقي، الفكر البسيط. الفكر المتجه نحو حالات ايجابية ونحو تجارب مميزة، الفكر الذي يعود الى المبادىء المحددة الواضحة. ان هذا النوع من الفكر صعب جدا، ونادرا ما نصادفه عند من يطلق عليهم اسم «المنظّرين» الذين يكونون في بعض الاحيان منهجيين اكثر من اللازم.

---

(١) «منذ ظهور الاسلحة النارية، اصبحت القوة الفردية قليلة الاهمية، وغدا الفكر المدني، لا القوة العسكرية، يحكم ويقود. عندما حصلت خلال قيادة جيش مصر (اي جيش الحملة الفرنسية في مصر) على لقب عضو في المجمع العلمي، كنت اعرف ماذا افعل. وكان بوسع كل جندي ان يعتقد بأنه يتمتع بشجاعة مثل شجاعتي... وكان من الممكن ان يضيع كل شيء لو لم يعتقدوا (الجنود) بانني اكثرهم علما. ان القيادة اليوم امر مدني. وميزة القائد هي الحساب، وهذه ميزة مدنية. ومعرفة الرجال، وهذه ميزة مدنية. والبلاغة، لا بلاغة الفقهاء، بل البلاغة التي تكهرب، وهذه ميزة مدنية»... «ان الحرب خطأ تاريخي... وسيتحقق النصر يوما بدون مدافع... ان من يسعى الى اقلاق السلم الاوروبي، يسعى الى الحرب الاهلية» (نابليون).

(٢) سأله هانوتو: «هل يساعدكم شيء من هذه الدراسات العميقة على حل المعضلات، عندما تكونون في ساعة من الساعات التي ينبغي عليكم فيها ان تقدموا مساهمتكم؟ - أبدا، ولكن هذا يعطيني الثقة» (المارشال فوش او رجل الحرب، ص ١٩).

الفكر الصهيوني وإدارة الحرب

انني اضع امامي مهمة اجراء فحص موجز ولكنه صحيح. لتأثير طريقة التفكير العائدة للنظام الهيغلي (والماركسي) على الفعل البشري بصورة عامة، وعلى «ادارة الحرب»[1] بشكل خاص.

١- مظاهر الجدلية:

تتلخص الفكرة الهيغلية بكلمة واحدة هي **الجدلية** التي تميل في ايامنا الى اخذ محل كلمة **فلسفة**، تماما كما حلت كلمة فلسفة من قبل محل كلمة **الميتزافيزيك** (ما وراء الطبيعة). ويأتي بعد كلمة الجدلية عادة صفة «**تاريخية**» التي تتجاوزها، لان للجدلية الحديثة علاقة جوهرية مع مسيرة الاحداث المعاصرة. وتوضع «جدلية هيغل المثالية» عادة، مقابل «جدلية ماركس المادية». ولكن هذه التمايزات لا تهم طالما اننا نبحث الامر على هذا المستوى الاعلى.

ولكي نفهم من الداخل المعنى الصميمي لكلمة **الجدلية**، فانه لا بد لنا من اعادتها الى أصلها، أي الى افلاطون، أول مفكر طرحها.

الجدلية بالنسبة الى افلاطون هي فن الحوار الممنهج. لقد كان سقراط محاوراً يستحق الاعجاب. عرف كيف يستخدم الفن الاثيني في الحوار مع استخدام التساؤلات الموجهة جيدا، والاعتراضات التي يتم تجاوزها رويدا رويدا، كطريق نحو الحقيقة الاكثر انسانية والاكثر سموا. ولا نزال حتى الآن، وبعد مرور ٢٥ قرنا نستمع الى محاورات سقراط.

---

(١) القيت المادة الواردة في هذا الفصل كمحاضرة تعليمية في مدرسة الحرب الفرنسية العليا (كلية الاركان العليا) خلال العام الدراسي ١٩٦٠- ١٩٦١.

ولكن افلاطون رفع طريقة أستاذه هذه الى اعلى درجة من الكثافة والتحليل والحماسة. وابتدع لنفسه (ولتلامذته المدعوين لحكم المدن الاغريقية) طريقة المناقشة بالارتفاع، او بشكل لولبي اذا كان بوسعنا استخدام هذا التعبير، تلك الطريقة التي كانت طريقة تعليمية وعقيدة بآن معا- فهي طريقة تعليمية تحترم الآراء، وعقيدة «متفهمة» اكثر فاكثر[1].

وهناك صلة يصعب تحديدها، مع انها حقيقة، بين الفلسفة السائدة لدى شعب ما في عصر محدد، والاساليب التي يستخدمها هذا الشعب في التقنيات، بما في ذلك الاستراتيجية. ومن هنا أمكن، في نهاية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، دراسة الطابع «الديكارتي» لاسلوب فوش، والطابع «الكانتي» لاسلوب لودندورف.

ويمكن القول أن تأثير طريقة او اسلوب التفكير على النشاطات البشرية، لم يكن في اي يوم من الايام ملحوظا مثلما هو عليه في العصر الحاضر، وخاصة منذ ان غدا هيغل، كما كان اريسطو من قبل، «استاذ الاساتذة» حسب تعبير برونشفيغ. وبشكل خاص منذ ان اصبح غرس العقيدة الماركسية، الذي حل محل التعليم الهيغلي، يطبق في مدارس نصف الكرة الارضية (بالاضافة الى التأثير غير المباشر الذي يمارسه على مدارس النصف الآخر)[2]، ويكوّن العقول المفكرة والفاعلة.

ان ستالين لم يقم دون سبب باختيار العام ١٩٣٧، الذي يوافق العيد الـ٣٠٠ لظهور «محاضرات حول طريقة ديكارت»، ليطرح في هذا العام مبادىء جدليته وفق ماركس وانغلز، وليدفع الناشر الى القول بان ديكارت وماركس «مفكران من مستوى واحد».

بيد ان علينا ان نؤكد هنا السمة الجوهرية للافلاطونية، وهي ان النقطة التي يتجه

(١) اننا لنجد صدى الافلاطونية في القرون الوسطى المسيحية، وفي جميع الفلسفة الحديثة. ولقد كان «لافل»، المتوفي في العام ١٩٥١، الممثل الكامل للافلاطونية. واذا كانت صيغة جدلية افلاطون الصاعدة «من الاشياء الخارجية الى الاشياء الداخلية، ومن الاشياء الداخلية الى الاشياء الاعلى»، فان بوسعنا القول ان كل تفكير عميق، وكل فكرة، هي ذات الهام افلاطوني (افلاطوني هنا بمعنى نابع من فلسفة افلاطون Platonicien لا بمعنى افلاطوني مثالي Platonique). وانني اعتقد ان ما كان ينقص هيغل هو المرحلة الثانية، اي المرور عبر «الاشياء الداخلية».

(٢) ان الوجودية، والظاهرية، والماركسية، التي تمثل ثلاثة تيارات قوية في الفلسفة الفرنسية المعاصرة، يمكن اعتبارها كفلسفات مشتقة من فكر هيغل.

نحوها لولب الجدلية الصاعد عبر لعبة المتضادات، كانت بالنسبة الى افلاطون خارج اللولب وأعلى منه. انها نقطة ثابتة، اعلى من الزمن ومن الفكر البشري نفسه. انها تعبير لا يتبدل. ان هذا السبب، او بالاحرى هذه **الغاية** الثابتة والمثالية، لم تكن غائبة عند هيغل او حتى عند ماركس، لان من المتعذر تفسير التقدم الجدلي دون افتراض وحدة في الاتجاه، وقمة لا بد من بلوغها. ولكن افلاطون كان يعلّم الآخرين ان هدف الحركة يقع فوق الحركة وابعد منها، وهو بالتالي هدف لا يكمن بلوغه، على حين ان هيغل يرى ان **الحركة وغاية الحركة لا تتمايزان، وليسا سوى شيء واحد**. او اذا اردتم، «الله» ليس كائناً، إنه الصيرورة ذاتها.

ولفهم هذه الصيغة المستوحاة في اعماقها من الهيغلية (والتي عبّر عنها رينان اكثر من مرة) فانني اعتقد ان من الضروري الانتباه المستمر الى ان الفلسفة الحديثة وضعت من قبل عقول مبنية وفق اسس الرياضيات، وهي ترى في نفسها أنموذجا لكل معرفة مبنية بشكل جيد. فلقد كان ديكارت وليبنز ومالبرانش وسبينوزا «علماء هندسة» قبل اي شيء آخر. اذن فما هو تكوين جوهر المحاكمة الرياضية؟ انه التطابق مع التطور المولِّد. انني عندما أُعرّف الدائرة بانها الشكل الذي يرسمه مستقيم يدور حول نقطة ثابتة، فانني لا اكتفي **بوصف** الدائرة، وانما **أولّدها**. ويمكن القول انني أضع نفسي في الفكر الخلاق الذي ينشىء هذا الشكل بصورة أبدية.

ومن هنا نرى، كيف تظهر فكرة امكانية معرفة كل شيء **بواسطة تعليله، بعد ايجاد قانون تشكيله**. ان هذه الفكرة يمكن ان تشكل العلم الاعلى، الانساني والالهي، العلم الذي كان ديكارت يسميه Mathesis ، والذي يبقى الأسطورة المنطقية الكبرى للفكر الحديث.

وكان التاريخ يبدو، بسبب طبيعته، وكأنه بمنجى من امكانية التعليل بواسطة فكر الإنسان. إما لأن هذا التعليل لا يُنجز لأن هناك مستقبلاً للتاريخ. أو لأن التاريخ عبارة عن احداث غير متوقعة غالباً، ولا تتعلق غالبيتها بالضرورة بالأحداث التي سبقتها.

ولكن ما أن جاء القرن الثامن عشر، حتى ظهر انصار التاريخ العام، وتساءل هيغل بعد ليسينغ، ما إذا كان من الممكن ايجاد قانون للتاريخ العام، يكون مماثلاً لقانون الطبيعة

وقانون الفكر. بحيث يكون الفكر البشري، الذي يعرف قانون التطور هذا ويطبقه جيداً، قادراً على التطابق مع الحركة المولِّدة للتاريخ».

ولكن أليس الإنسان إلهاً؟ من يدري؟ أفلا يمكن ان نقبل بأن حركة الفكر التي يمكنني بواسطتها التطابق مع ولادة الكائنات من جهة، والحركة غير المحددة للزمن البشري التي يتشكل التاريخ بواسطتها من جهة أخرى، هما في أعماقهما حقيقة واحدة، أو بالاحرى الحقيقة الوحيدة.

أو على الأقل، ألا يمكن ان يتلاقى **التاريخ** مع **المنطق**.

إن سرد التاريخ بقطاعات وأجزاء يجعله يبدو وكأنه سلسلة من الصدف. ولكن إذا نظرنا إلى التاريخ الشامل، التاريخ العام، واستطعنا ايجاد قانونه. صار بوسعنا ان لا نكتفي بسرد التاريخ، بل أن نقوم **باستنتاجه**.

إن التاريخ العام هو الجدلية الحية. وليست الجدلية والتاريخ سوى شيء واحد.

ولكن هذا لا يكفي. ولو كنت أتحدث بلغة عسكرية لقلت باننا لا نزال في اطار الاستراتيجية ولم نصل بعد الى التكتيك. لأننا لا نزال بعيدين جداً عن التماس. لأن الأمر لا يتعلق فقط بالتأكيد الغامض الى حد ما على ان **الكائن** يعود إلى **الصيرورة**، أو ان المعرفة الحقيقية هي التي تجد الطريقة الأبدية للتوليد. بل لا بد لنا أيضاً من ايجاد أداة دقيقة الى حد ما، تؤمن فهم كيفية هذا التوليد، ووتيرة هذه الصيرورة.

لقد كانت هذه الأداة موجودة دائماً في التقليد الفلسفي واللاهوتي. ولجأ اليها الافلاطونيون الجدد والمسيحيون. انها **التثليث**. واقصد هنا التثليث المأخوذ كمولّد. ويكفي التفكير **بالثالوث** المسيحي حتى نفهم ان المبادىء في هذا التثليث غير متقابلة، ولكنها تُعرف بواسطة حركة وحيدة الاتجاه. الأمر الذي يجعل الأول يولّد الثاني، ويأتي الثالث من الاثنين السابقين بواسطة ضرورة غامضة.

ان هيغل الذي درس اللاهوت بدّل ترتيب هذا المخطط وعدّله، ووقّته، وحصل منه دون شك على عناصر جدليته.

ويتضمن التطور الجدلي ثلاث لحظات تسمى غالباً: **المقولة**، **والنقيضة**،

والتركيب. وكان هيغل يدعوها عادة **التأكيد**، **والنفي**، **ونفي النفي**. فالمقولة تطرح، والنقيضة تنفي ما كان مطروحاً. وهكذا نرى، وجودولاوجود، حرب وسلام. . ولكن اللحظة الاكثر أهمية، والتي تتطلب كل انتباهنا، هي لحظة التركيب، أو نفي النفي.

إن هذا التركيب يتجاوز التناقض، مع الاحتفاظ داخل مستوى أعلى، بكل ما تم تأكيده في المقولة وتم نفيه في النقيضة. انه نفي شامل للمقولة والنقيضة المدمّرتين من قبله، كما انه في الوقت نفسه تأكيد عميق على صحتهما. ان المقولة والنقيضة تموتان فيه، لتولدان من جديد وهما اكثر صفاء وأشد اتحاداً.

ولقد ساعد هيغل الى حد كبير وجود كلمة Aufhebung الالمانية التي تعني بآن واحد **أفنى وحفظ**. والتي يمكن القول ان كلمة Assombtion **صعود العذراء** هي الترجمة الأقل خطأ لها.

ويقدم هيغل الملاحظات التالية حول فعل Aufheben:

«ان هذه الكلمة تعني قبل كل شيء الغى، ونفى. وبهذا المعنى فاننا نقول ان قانونا او وضعا قد أُلغي. ولكن من الممكن استخدام كلمة Aufbewahren بمعنى حفظ. وهكذا نقول عن شيء ما بأنه كان محفوظا جيدا. وعلينا أن لا نعتبر ان هذا الاستخدام الذي يعطي كلمة واحدة معنيين احدهما ايجابي والاخر سلبي، عبارة عن شيء صُدفي. كما ان علينا ان لا ننتقده لأنه يفسح المجال امام التشويش، ومن الواجب على العكس ان نعترف ان في هذا الاستخدام الروح النظرية البحتة للغتنا التي تسمو فوق التقسيمات وفق تجريدات الادراك».

ولقد كتب جول لوكييه بهذا الصدد: «ان رئيس مدرسة رفع الشجاعة من السخف الذي لا معنى له الى البطولة، صادف في احدى غرائب اللغة الالمانية ثورة كاملة. لقد لاحظ، وفرز، وأُعجب بكلمة مزدوجة المعنى. فهي تعني **وضع** كما تعني في الوقت نفسه رفع. . .».

وانني اسمح لنفسي هنا بذكر ملاحظة خاصة. ما هي اللحظة الاكثر جوهرية بين هذه اللحظات الثلاث؟ سيقول البعض: انها المقولة، ما دامت تطرح الموضوع. وسيقول

البعض الاخر: انها التركيب، لانه المحصلة. اما انا فأقول: انها النقضية (اللا) التي تمثل المبدأ المحرك للجدلية، خاصة وانها تبقى في قلب التركيب الذي يعتبر المبدأ الاعلى الموحِّد. وسنوضح ذلك فيما بعد بأمثلة.

لقد لاحظت خلال تدريس تاريخ الفكر، ان الفلسفة السياسية (وكل الفلسفات الكبيرة ذات نتائج سياسية وربما كانت ذات منابع سياسية) تأتي غالبا من التفكير باضطرابات دولة معارضة ومجاورة. ان افلاطون، السياسي الكبير جدا، كان يفكر باسبارطة، مع انه من اثينا. واريسطو كان يفكر بمقدونيا امبراطورية الاسكندر (الرواقية Stoicisme عبارة عن فكرة صنعتها عقول اغريقية عن الامبراطورية الرومانية. وكان هوبس يفكر بلويس الرابع عشر، على حين كان مونتيسكيو يفكر بانكلترا البرلمانية كما كان «كانت» يفكر بالعام ١٧٨٩ (عام اندلاع الثورة الفرنسية). اما في ايامنا فالواقع الروسي (السوفياتي) يؤثر بشكل خفي على عدة افكار تبدو وكأنها افكار نظرية بحتة.

وليس من المشكوك فيه ان هيغل صاغ اسلوبه وطريقته، وانظاره الفكرية متجهة نحو الثورة الفرنسية وامبراطورية نابوليون. فلقد كان امامه في هذين الواقعين مثال لجدلية حية، مكتوبة بالطبشور الاحمر على اللوح الاسود للتاريخ. لقد ادت الملكية الى ولادة نقيضتها، وكان موت الملك المرحلة الثانية للجدلية، اما «مرحلة الارهاب» النافية، فكانت ضرورية لتأمين الصعود الجدلي، وصعود اللحظتين المتناقضتين داخل مرحلة تركيبية ثالثة. ولقد بدا أن هذه المرحلة الثالثة، الامبراطورية، لم تكن وليدة الصدفة او وليدة عدم الامكانية، ولكنها جاءت من حركة التاريخ الضرورية: لقد كان نابليون التركيب الحي الذي يوجد في داخله كل حقيقة الملكية، رغم نفيها، وكل حقيقة «مرحلة الارهاب» رغم نفيها ايضا.

ومن الجدير بالذكر في هذا المثال، رغم ان هيغل لم يتحدث عن ذلك، هو ان نابليون كان في الحقيقة اقرب الى النفي منه الى الاثبات. وانه ـ كما يؤكد عدة مؤرخين ـ كان يتابع عملية الثورة اكثر بكثير من العمل على اقامة الملكية. وهنا تبدو جيدا القدرة العليا للحظة النفي.

في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٠٦، رأى هيغل نابليون بعد معركة يينا، فكتب

آنذاك: «انه لشيء رائع ان يرى المرء روح العصر مجسدة، وان يرى مثل هذا الشخص، مركزا هنا على نقطة واحدة، جالسا على حصانه، ومادّاً يده على العالم ومسيطرا عليه».

ويدل هذا كيف ان الفكرة الجدلية هي فكرة «امبراطورية»، اذا صح القول ان المرحلة الامبراطورية، كما ظهرت في روما، هي اللحظة التي تركز فيها الحق الشعبي المعارض للحق الملكي، في شخص واحد، يملك كل السلطات ويمارسها باسم الشعب. وسيكون دائما على هذه الارض تطابق بين الطريقة الجدلية والسلطة الموحدة بشكل كامل.

ويمكن القول ان الطريقة الجدلية ستكون دائما محبوبة من الطراز الحديث للسلطة القوية جدا (كما كانت في الماضي الفكرة اللاهوتية الخاصة بـ «الحق الالهي» و«الحق المقدس»)، لان هذه الطريقة تسمح بتبرير الواقع واعطائه هالة القيمة[1].

لنأخذ الآن كمثال هيغلي نموذجي لطريقة التفكير، المحاكمة العقلية الشهيرة حول «جدلية السيد والعبد». ان النص الذي كتبه هيغل (حول هذا الموضوع) وارد في كتاب «**ظاهرية الفكر**» (١٨٠٧)، الذي اكمله في العام ١٨١٧ في كتاب «**فلسفة الفكر**»[2].

ان السيد والعبد متلازمان يتطلب احدهما وجود الآخر. وليس هناك سيد دون عبد، والعكس صحيح.

ويستهلك السيد نتاج عمل العبد. ويظهر تفوقه على العبد قبل كل شيء في انه يسيطر على المادة عن طريق التمتع بها. وهو يدمر بالاستهلاك الاشياء التي تشكل نتاج عمل العبد. اما العبد، فهو لا يقوم الا بمعالجة المادة التي تبقى بالتالي منفصلة عنه: وهو يتوقف قبل الوصول الى التمتع. وهكذا يجد السيد في علاقته مع الاشياء شعورا بنفسه، اي نوعا من «الوعي بالذات» الذي لا يتوافر للعبد.

---

(١) «ان الحق الإلهي وحده» كان يضع فوق الأمير سلطة الله، الحَكَمَ الأخير لأفعاله. على حين ان «الحق الجدلي» يبرر الفعل دون مرجع أعلى.

(٢) منشورات غلوكنز، الجزء الثاني، ص ١٤٨ ـ ١٦١، والجزء العاشر، ص ٢٨٥ ـ ٢٩١. ولقد ترجم هيبوليت كتاب ظاهرية الفكر» في العام ١٩٤٧، ونشرته دار اوبيير. والنص الخاص بـ«السيد والعبد» موجود في الجزء الأول، ص ١٦١ ـ ١٦٤ من هذه الترجمة. انظر ايضاً كتاب فرانس غريغوار «من منابع فكر ماركس وهيغل وفويرباخ» ١٩٤٧، ص ١٨١ ـ ١٨٥.

ويظهر تفوق السيد على العبد ايضا، في انه يرغمه على العمل مع أنه يحرمه من ثمرة عمله. وهكذا يجد في علاقته مع العبد هذه المرة شعورا بنفسه، «وعي بالذات»، لا يتوافر للعبد ايضا. فالسيد يثبت نفسه امام العبد، وضد العبد.

تلك هي العلاقات المباشرة التي يمارسها السيد مع الاشياء ومع العبد. فهو يقيم في الوقت نفسه علاقة مع كل من الكائنين (الاشياء والعبد) عن طريق الكائن الآخر. فبالعبد يسيطر على الاشياء، طالما ان العبد يصنع الاشياء التي تلبي رغباته، وبالشيء يسيطر على العبد، لان العبد مرتبط بصنع هذا الشيء.

وبرضوخ العبد بالقوة للحرمان والطاعة، فانه يعترف بأن السيد هو السيد. وهذا الاعتراف يكمل اعطاء السيد ملكية نفسه، واعطاءه «الوعي بالذات» في الشيء وعبره، وفي العبد وعبره.

ان الاعتراف الذي أتينا على ذكره اعتراف وحيد الاتجاه- هذا امر بديهي ولكن لا بد لنا من ذكره.

ولكن- وهذه هي المرحلة الثانية من هذه الجدلية- بقدر ما يسيطر السيد على العبد، فان السيد يصبح مرتبطا به، لانه لا يستطيع الاستغناء عن خدماته. وهكذا يغدو السيد تحت رحمة العبد، الذي يصبح سيد السيد.

ولكن في الحالة التي يحوّل فيها العبد السيد الى عبد، تعود سيرورة الامور لتكون ضد مصلحة السيد الجديد. وهكذا يميل السيد والعبد نحو المستوى الطبيعي، ونحو تحول احدهما في الآخر بحركة متناوبة لا نهائية. واخيرا يأتي حتما اليوم- وهذه هي المرحلة الثالثة- الذي يجد السيد والعبد فيه شكلا من اشكال المصالحة. ولقد كان هذا الشكل في التاريخ ظهور مذهب الرواقية. فلقد فهم العبد «إبيكتيت» ان العبودية الوحيدة هي عبودية النفس التي تسمح للاهواء والاحداث بالسيطرة عليها. وبعد ذلك، تركت تبعية العبد الطبيعية مكانها ليحل محلها هذه المرة الاستقلال النفسي. وفهم الامبراطور «مارك اوريل» بدوره ان السيطرة الحقيقية هي سيطرة النفس التي تسمو فوق الاحداث والاهواء. وبدلا من وضع سعادتهما في محاولة احدهما لفرض الظلم، ومحاولة الآخر لهز نير هذا الظلم، قبل الجانبان وضعهما الاجتماعي، ومارساه كشيء غير ذي بال، وعملا لسيادة العقل فيهما. وما

ان اجتمع العبد والسيد على هذه السيطرة المشتركة على النفس حتى تصالحا. وحل محل اعتراف العبد بالقوة بان السيد هو السيد، اعتراف متبادل، أقر كل واحد منهما فيه، بمحض ارادتهما، بأن الآخر شخص. وبهذا توصل كلاهما الى «وعي بالذات» من مستوى اعلى: باكتشاف العقل في ذاتيهما اولا، وبرؤية الآخر يعترف بهذا الاكتشاف ثانيا، وبفضل اتحاد احدهما مع الآخر بواسطة العقل اخيرا.

ان الدافع لهذا السمو نحو الحرية الداخلية هو العبد.

والحقيقة ان الخوف من الموت، والطاعة في كل تفصيلات الوجود، طهرا العبد من كل رباط، ووضعا شخصيته الذاتية امامه، امام عقله. وبهذا فهم الفكر شموليته السلبية واخضعها.

ومن جهة اخرى، فان صنع المادة بالعمل، يمثل السيطرة عليها اذا ما تم التوقف قبل التمتع بها. لان التمتع بحد ذاته يدمر الغرض المصنوع باستهلاكه، و«الوعي بالذات» الذي يمثله هذا التمتع مؤقت سريع الزوال، والمالك يدمر الغرض المصنوع عن طريق التمتع. اما العمل، فهو يؤدي، على العكس، الى نتاج ثابت. وعبر حق العمل وفي هذا الحق، يجد العامل «وعيا بالذات» اكثر دواما. وعند نقل العمل الى نطاق الفكر، يصبح اعدادا داخليا ودائما للافكار الشاملة. ويكسب الفكر بذلك شموليته الايجابية.

ان هذا التحليل الصحيح يجعلنا نفهم جيدا خط سير تفكير هيغل، ودقة ملاحظاته العارضة وعمقها، ودافع محاكمته الفكرية.

وأنا ألفت الانتباه هنا الى الانطباع الخارق بالتداخل الذي تعطيه الجدلية المطبقة بهذا الشكل (وهو يقع على مستوى اعلى من الانطباع بالتداخل الذي كان بوسع جدل اريسطو ان يعطيه. لان ذلك الجدل لم يكن يهتم الا بشكل الفكر المجرد، لان الجدلية تدخلنا على ما يبدو في سر التاريخ، وتبرر ما تكشفه لنا التجربة حولنا وفي داخلنا).

ثم انني الفت الانتباه مجددا الى الطابع المولِّد لهذه المرحلة الجدلية الثانية، والتي تتمثل هنا بوعي العبد بأنه عبد. ان هذا الوعي مبدأ خلاصه، إذ ما أن يفهم العبد جيدا ان السيد بحاجة اليه ليكون سيدا، حتى يفهم في الوقت ذاته ان السيد مدعو لان يصبح عبدا للعبد، وان العبد مدعو لان يغدو سيد السيد.

وفي المرحلة الجدلية الثالثة يكون مبدأ البناء الجديد «العبد- السيد»، المبدأ الذي سيكوّن العلاقة المنظمة للتركيب. صحيح ان الامبراطور مارك اوريل والعبد إيبيكتيت تصالحا في فكرة زينون (الرواقية). ولكن هيغل، حدد في «**فلسفة الفكر**» مثال العبد الذي قاد السيد نحو حرية الفكر. والوضع السلبي الذي تحمله الوعي هو الدافع للتحرر.

ويمكن ان نفكر في البداية، بعد هذه الاعتبارات التي لا تزال هيكلية اكثر مما ينبغي، ان طريقة التفكير الهيغلية مصطنعة، وبعيدة كل البعد عن التطبيق العام، وليس لها اي صدى في نطاق العمل. ولكن ليس هناك من يعترض على ان ماركس قد أعجب بهذه الطريقة (مع انه لا يقر فلسفة هيغل). ويعرف الجميع الاهمية التي اخذتها مثل هذه الطريقة الجدلية في أيامنا بالنسبة الى تكوين الافكار واعداد الحرب.

لذا لا بد من الاعتقاد، رغم المظهر الخارجي، ان في الطريقة الهيغلية مزايا مدهشة. واود من الآن فصاعدا لفت الانتباه نحو هذه المزايا، ونحو الحوافز التي اعطتها الهيغلية للفكر والعمل.

ان الدراسة المقارنة للفلاسفة، والشعراء، والصوفيين (عندما يكون الفلاسفة والشعراء والصوفيون مؤلفين غامضين وذوي افكار صعبة بل وغير مفهومة) قد افهمتني، بشكل متأخر الى حد ما في الحياة، ان من الملائم التمييز بين اسلوب العرض او الاكتشاف الذي يستخدمه الفكر البشري، والحقائق التي يجدها الفكر بفضل هذا الاسلوب المصطنع، الحرفي، الفني. ويبدو لي ان كل من كانوا في شبابهم «ألكسندريين»[1]، لاحظوا كم كانت قاعدة السجع ملائمة، وكم كانت تعطي من روح، عندما تجعلك تكتشف غالبا آفاقا فكرية غير متوقعة. ان فاليري الذي فكر بقوانين اللغة الشعرية، قال بان القواعد التي تبدو سخيفة جدا هي في الحقيقة ثمينة وضرورية لدفعك حتى تخلق باستفاضة. وينطبق هذا القول هنا: ان طريقة التثليث، المطبقة على كل شيء، مصطنعة. جربوها. تمرنوا. وستجدون انها توسع حقل خبرتنا، وتجبرنا على ان نلاحظ **روابط** كل الاشياء، وتجبرنا على ان نسمو بلا انقطاع من الادنى الى الاعلى، وانها تقدم لنا أخيرا السعادة بان تسمح لنا بأن نبرر كل شيء، حتى الاشياء التي كنا نطلق عليها قبل التثليث اسم **الشر**. وليس من قبيل

(١) نسبة إلى Raman d'Alexandre وهي قصيدة ترجع الى القرن الثاني عشر منظومة بأبيات من ١٢ مقطعاً.

الصدفة ان التثليث حقق في الفلسفة الحديثة فوائد غريبة.

فلنقل اذن، انه اذا كان اسلوب هيغل كما وصفه باسكال «غير مؤكد وشاق»، واذا كانت طريقته «آلة»، فإن الفكر المقوى، يستطيع على الأقل، من خلال الاسلوب والطريقة، ان يثير ويقوي في داخله معاني جديدة[1].

ولمزيد من الوضوح، فانني اجمع هذه المعاني حول ثلاث كلمات هي: **الكلية، والصيرورة، والانسانية**.

ان كل علم يقسّم. ويكفي المرء ان يتجول في الباحة خلال إلقاء الدروس الثانوية، وان ينتبه الى عناوين الكتب: فيزياء، تاريخ، آداب.. وان يلاحظ في المدن بعد ذلك هذه «الكليات» المتباعدة: حقوق، علوم، وان يفكر كم يندر ان يلتقي الاساتذة ليتعاونوا. يكفي المرء كل هذا، حتى يعي الحماقة المحتومة التي تولدها المعرفة، عندما نجزّئها ونتركها دون روابط. ومجتمعنا الحديث التقني، يفرض علينا ان نصنع بشكل مبكر الاخصائيين الذين يعرفون جزءا واحدا من الخبرة او الفن، ويشكلون افكارا حول الاجزاء الاخرى. واذا صح ان الامور كلها تتماسك وتتصل فيما بينها، وعينا كم هي ضارة هذه المتطلبات. ولقد احس بذلك كبار مفكري القرن التاسع عشر: أمبير، كومت، كورنو. ولكن ازدياد التقنية زاد صعوبة اعطاء المرء المعنى الكلي.

---

(١) لقد كان عند هيغل على كل حال احترام طبيعي للكائن. وقبول واثق للمعطية التي تستدعي الفكر العلمي. ويقال انه خلال اجتياز جبال الالب اكتفى بقول: Das ist (هذا يكون). واسمحوا لي ان اذكر هذا المقطع الغريب للفيلسوف الاميركي W.James حول هذه الناحية عند هيغل: «اننا نقترف ازاء هيغل ظلما كبيرا اذا اعتبرنا انه مفكر قبل أي شيء آخر. فهو في الحقيقة مراقب ساذج، ولكنه مأخوذ بتفضيل الالفاظ الغريبة التقنية والمنطقية. انه يقف وسط المد التجريبي للاشياء، ويترك نفسه يتأثر بما يحدث... ان الانطباع الذي يحس به رجل ساذج يقف بكل بساطة وسط مد الاشياء، هو ان الاشياء غير متوازنة. ومهما كانت التوازنات التي تصل اليها خبراتنا، فانها ليست اكثر من توازنات مؤقتة... كما ان جميع التوازنات المبنية ببطء، والتي يتوصل الى تحقيقها الناس في حياتهم العائلية، وعلاقاتهم المدنية أو المهنية، لا تلبث ان تدمرها احداث ذات طابع معنوي أو فكري أو مادي.. ان هروب الاشياء التي تلاحقها نقائضها عن قرب، ومصير كل امرىء ودماره، وهذه المسيرة الابدية الى الامام نحو مستقبل سيطغى على الحاضر، تشكل كلها الادراك الهيغلي لكل الاشياء التجريبية والمنتهية».

ومن الواضح ان هذا الاحساس بالكلية عند هيغل وتلامذته ·قد اتسع بفضل الطريقة ذاتها. ولنقل ان الامر يتعلق بكلية متكاملة.

بيد ان هذه الكلية هي كلية الصيرورة. وعمل التاريخ لا ينتهي ابدا. وهو دائما في طور الانهاء. وعبر المعارضات والصراعات الضرورية تستمر عملية صاعدة «تستعيد الزمن»، طالما انها تحافظ على كل ما كان ملائما في الماضي. ولا شك في ان هذه **الصيرورة** المتكاملة هي اكثر ما يسترعي الانتباه في الهيغلية، وهي التي تفسر سحرها العميق الذي تؤثر به على العقول. ان الحقيقة بالنسبة الى هيغل لم تتحقق بعد. انها حقيقة متحركة. وهي لا تدمر نفسها عندما تتجاوز وتسمو على نفسها، الا كما تدمر ثمرة البلوط نفسها عندما تصبح شجرة بلوط تتحقق فيها كل حقيقة ثمرة البلوط. ولذا فإن التاريخ الذي يُصنع بسمو كاف او بعمق كاف (اي عندما يُصنع من قبل فيلسوف) لا يختلف عن الحقيقة. فالحقيقة هي التاريخ. والتاريخ هو الحقيقة. ولا ينبغي علينا بعد الآن ان نفرق بين هذين المجالين.

ان صنع الاستراتيجية ضمن اطار هذه الفرضية يعني صنع تاريخ الاستراتيجيه الذي يشكل حقيقة الاستراتيجية. لذا فان علم اللاهوت القديم قد استبدل في ارضية هيغل بتاريخ الاديان. وليس من المبالغة في شيء الحديث عن الاهمية التي اخذتها هذه الطريقة- العقيدة في فكر القرن التاسع عشر في اوروبا. فلقد انجبت ماركس، في الوقت الذي اثرت به على تين ورينان. ويقول جان غرونييه: «الحقيقة انه منذ هيغل، الذي ادخل الطبيعة في التاريخ، اخذت هذه الكلمة (التاريخ) طابعا مقدسا. لقد كان بروسڤيغ (وهو احد تلامذة سبينوزا) يقول بأنه لم يكن هناك «تاريخ مقدس»، وان كل تاريخ كان مدنسا. ولكن الهيغلية تابعت خطى المسيحية بشكل مجنون ومفرط. ولم يعد هناك هذه المرة تاريخ مدنس، وكل شيء تاريخ مقدس».

لكن ماركس وجد، ربما اكثر من اي انسان آخر. ان الفكر الهيغلي ملائم لتطور الانسان. ويمكن القول ان الهيغلي- الماركسي، هو بمعنى ما، **انساني كامل**. اذا كان كل شيء في الحقيقة **يقع دائما**، واذا اعتبرنا انه ليس هناك شيء **منجز** أو **كامل**، لتوجب علينا ان نستنتج من ذلك ان كل شيء هو دائما في طور الانجاز، وان كل شيء يتم انجازه- والانسان

قبل كل شيء .والصيرورة الضرورية للزمن التاريخي تمر عبر الوجدان البشري، وتتم من اجل الانسان الكامل، انسان الغد الذي لم يوجد بعد، ولكنه سيوجد بالتأكيد.

واذا كان ماركس واتباعه قد حاولوا تحديد قوانين التطور التاريخي، فانهم لم يفعلوا ذلك بهدف المعرفة، بل بهدف العمل، والوصول الى الغاية المقبلة للعمل والحرب، وهي في الوضع الحالي لعالمنا: الغاء الظلم الرئيسي المتمثل في حالة الكادحين (البروليتاريا). وتقول آخر اطروحة ماركس حول فيرباخ: «لم يفعل الفلاسفة سوى تفسير العالم باشكال مختلفة. ولكن الأمر يتطلب تغييره (العالم)». وكل علم عبارة عن «معرفة فعالة مترجمة فورا الى تكنيك».

والرائع هنا، ان هذا الانجاز البشري يتم، بالضرورة ومهما حصل، بفضل قانون كعلم الهندسة. ومما يستحق الاعجاب ايضا، ان البشرية لا تستطيع ان تتم نفسها الا عبر معارضة نفسها، عبر الصراع، والصدام. ويوجد هنا نوع من المصير المحتوم، حيث يكون الشر نفسه في خدمة الخير.

ولا يمكن فهم نجاح الطريقة الهيغلية على الارض اذا لم نر بأنها تضم صوفية دنوية متفائلة. وهي تسمح للانسان بأن يعتقد بأنه قد قلب جميع الموانع، وان المانع نفسه وسيلة، وان الخلاص قادم، وهو على الابواب:

ومن الجدير بالملاحظة ان هذه الاتجاهات الثلاثة للفكر والبحث والعمل، مشابهة تماما للاتجاهات التي يطورها،في فكر ما،التمثل العميق للفكرة اليهودية والمسيحية. فالانبياء اليهود (اسحاق ودانيال مثلا) ومؤسسو المسيحية (بولس وحنا مثلا)، واللاهوتيون آباء الكنيسة (اوريجين، وخاصة سانت اوغوستان) اكدوا هم ايضا على شمولية الخلق، وعلى الديناميكية الموحدة للتاريخ (تبايناتها، وصراعاتها الداخلية بين مدينة الخير ومدينة الشر، الامر الذي كان موضوع «مدينة الله»، الانجيل الثاني للقرون الوسطى)، كما اكدوا ايضا، وبشكل اشد، على خضوع كل الاشياء- الطبيعة والتاريخ- للانسان كفرد وكجماعة.

ومن الصعب فهم نجاح الهيغلية- الماركسية وسط شعوب الحضارة المسيحية القديمة، بل والصوفية، مثل السلاف الارثوذوكسيين، اذا لم نفكر بهذه البنية التحتية اليهودية- المسيحية. ان الهيغلية- الماركسية عبارة عن مسيحية شاملة، ولكنها منقولة من

الروح الى المادة، من الابدية الى الزمن، من السمو فوق التجربة الى التعليلية. وذلك لان جوهر المفهوم المسيحي للكون يتمثل في التفكير (كما فكر سقراط وافلاطون من قبل، وكما افترضت جميع الديانات الوثنية) بأن فوق الشمولية والصيرورة والانسان، توجد فكرة الخير، اي مقياس ثابت، ووحدة قياس، ومنبع الكينونة، وتوافق خلّاق. . .، متميزة عن كل ما كان موجودا في «الزمان- المكان»، وفي «الطبيعة- التاريخ».

ولقد قدم كثير من المفاهيم خدمة في تحديد وتعريف هذا «الثابت الازلي». ومن بينها مفاهيم: المطلق، والمثالي، والحقيقة، والقيمة العليا، والحكم النهائي، والله. ولا نريد ان نذكر هنا سوى نقطة واجدة، وهي ان للصيرورة في المفهوم الافلاطوني- المسيحي غاية تتجه نحوها هذه الصيرورة، لتنتهي بعد الوصول اليها. وان لهذه الصيرورة ايضا سبباً يوجهها ويحكم عليها في بعض الحالات. اما في المفهوم الهيغلي- الماركسي، فالصيرورة في حد ذاتها سبب نفسها وغايتها. وهكذا يحل مفهوم يتمحور حول الانسان محل مفهوم يتمحور حول الله.

٢- الجدليةوإدارة العمل والحرب:

سنبحث من الآن وصاعدا، ووفق طريقة بسيطة، المزايا والسلبيات التي يمكن ان تمثلها هذه الطريقة في التفكير من اجل التكوين العميق للفكر البشري. وسنتساءل بشكل خاص عن المزايا والسلبيات التي تمثلها هذه الطريقة في تكوين الكتلة المفكرة في مجتمع ما. وسنذهب الى التساؤ ل بتحديد اكبر عن المزايا والسلبيات التي تمثلها الطريقة في قيادة كتلة بشرية منظمة بشكل ديناميكي، اي في ما سمي حتى الآن الحرب.

وسنحاول الرد على هذه الاسئلة موضوعيا، اي دون ان نعطي حكما تقييميا للخير والشر، باحثين فقط عن فاعلية الطريقة في مجال الوصول الى نتيجة محددة وفعالة. ولكننا سنتساءل خلال عملنا: هل يمكن لهذا الموقف المحايد والموضوعي ان يصمد بشكل معقول حتى النهاية. لنأخذ الافتراض التالي. وهو الافتراض الذي طرحه دستوييفسكي في «اسطورة المفتش الكبير»، أي افتراض رجل يملك كامل السلطة وسيد لنصف العالم على الاقل، ويتساءل عن كيفية حل المعضلة التالية: كيف يمكن ان يعطي الى البشرية تثقيفاً واحدا متماسكا، يسمح لها بالوصول- باكبر سرعة ممكنة وباكثر الاشكال فاعلية- الى درجة

معينة من الثقافة،لا من اجل التأمل المجرد بل من اجل العمل والغزو. واقول: في وقت قصير، لانني اعتقد (كما سترون) ان هذا العامل هام.

لكي تتمكن عقيدة ما أن تصبح اداة للتثقيف والعمل وسط كتلة بشرية، في كل مستويات الثقافة والعمل، فان من الضروري ان تتضمن ميكانيكية بسيطة نسبيا.

وتؤمن الهيغلية هذا المطلب، كما أمنته عقيدة اريسطو خلال زمن طويل. ان قراءة هيغل صعبة بسبب الغموض الالماني. اما بالنسبة الى من يتغلب على هذا الضباب، ويتجاوزه، ويستفيد منه، فان هيغل كاتب بسيط جدا(١). لان الطريقة المستخدمة واحدة دائما مهما كان الموضوع المطروح. والحقيقة ان صعوبة المعرفة تأتي من ان التجربة سيّدة في هذا المجال. وان على المرء في كل مجال من مجالات المعرفة، كما في كل حالة خاصة، ان يلينّ تفكيره وأن يخضعه الى تنوّع لا نهائي تقريبا. وهو تنوع رائع لكنه متعب. ويمكن تجاوز هذه الصعوبة الى حد بعيد بفضل اسلوب كالاسلوب الهيغلي، حيث كل شيء مستنتج مسبقا بميكانيكية التثليث. صحيح ان هيغل كان يملك عبقرية بالاضافة الى تثليثاته. ولكن تثليثاته كانت، حتى بدون عبقريته، اداة تدفع الى تقليد العبقرية.

لقد قلت ان اريسطو، كان في القرون الوسطى وفي كل المدرسة السكولاستيكية «الفيلسوف»، واستاذ الاساتذة. ولكن اسلوب اريسطو الثمين عند الوصف الموجز،لم يكن يملك ميزة اسلوب هيغل الذي لا يكتفي **بالوصف**، ولكنه **يولّد**، ويعطينا قانون صنع الاشياء. ويرضي بشكل جيد رغبة الانسان العادي في الارتقاء خلال زمن قصير الى **مجمل** المعارف، والى موسوعة المعرفة البشرية. وهو يثير الاعجاب ايضا بتأكيده على النقيضة، على المعارضة، على الصراع، سواء كان يتعلق **بالافكار** أم **بالجيوش**، اذ أن الانسان يحب المعارك.

وبالاضاقة الى ذلك،فان مثل هذه الطريقة تمتاز بأنها قادرة على ارضاء اعلى تطلعات

---

(١) يفكر المرء احيانا عند قراءة هيغل بكلمة لا بيش في احدى كوميدياته: «ينبغي دائما قول الاشياء للمحامي بوضوح، اذ أنّ عليه بعد ذلك أن يجعلها غامضة». وليس من النقد في شيء القول بأن لغة معقدة، متحركة، مركبة كاللغة الالمانية تفتح مجالات واسعة أمام زيادة صعوبات النصوص.

الذكاء وادناها بآن واحد. لقد اثبت غوته في كتابه «فاوست» ان العقل نافٍ في جوهره. وشخصية «ميفيستو» تمثل هذا المظهر النافي للذكاء خلال عمله السري، وهو مظهر منتشر جدا في ايامنا. وفي عصر الاهواء (وخاصة الاهواء القومية او الشعبية)، كان النفي دائما في المكان الاول، حيث انه كالامتلاك المسبق. وليس من قبيل الصدفة ان الهيغلية التي حققت نجاحا محدودا لدى ذوي الذكاء المتوسط وفي الطبقات الاجتماعية الوسيطة، قد لاقت قبولا ورواجا في اعلى المستويات وأدناها، في «حزب الذكاء» وبين الكتل البشرية.

* * *

وانتقل من ذلك الى تطبيقات اشد خصوصية واكثر قربا من فكرة الحرب.

ان اللوحة التالية تسمح لنا بأن نرى بعين العقل الشرحين التاليين (المزايا والسلبيات) اللذين تكمن اهميتهما الرئيسية في المقارنة التي يمكن اجراؤها بينهما:

١- المزايــا:

لنفحص اولا مزايا فكرة الكلية. فلقد لاحظناها وحددناها عندما تحدثت عن الاتجاهات الثلاثة للفكر والبحث والعمل النامية عند الهيغليين. ومن الواضح ان الاعداد التركيبي ثمين من اجل اعداد العقل الذي يمكن ان يخلط حيّزه الخاص مع الكل.

ولكنني اتساءل عما اذا كان مثل هذا الاعداد مفيد من وجهة نظر العمل (والعمل السياسي والعنيف). ان من الواضح انه يتضمن فكرة جديدة وعميقة، لا احكم عليها الآن، بل اكتفي في هذه اللحظة بتحديدها.

انها تبدّل بعمق المفهوم الذي نعرفه حتى الآن عن «الحرب».

ويمكن القول انه منذ بدايات الحضارة حتى الحروب الاخيرة، كانت الحرب قدرا إلهياً محتوما. ومنذ بداية الصراعات بين المجموعات البشرية، التي كانت تؤمن بالمقدس، كان من المتعارف عليه اللجوء الى تسليح جزء من الذكور في كل معسكر، وتجابه هؤلاء الذكور الخطرين، واعتبار ان نتيجة الاقتتال تحدد المهزوم الذي ينبغي عليه ان يخضع قبل ان يُسحق، لان حكم القدر كان ضده. ومن المؤكد ان عدد المقاتلين قد ازداد منذ الثورة الفرنسية واصبح يشمل الأمة باسرها. وتزايدت حدة الصراعات. وغدت كل طاقات

البلاد مشتركة في القدر الإلهي المحتوم. ولكن الحرب اصبحت تنتهي «بهدنة»، تعقبها اتفاقية. «وصار السلم يبدأ من جديد بين المنتصرين والمهزومين». وبقيت الحرب محكومة بشروط متعارف عليها تحدد بدايتها ونهايتها. وكانت الحرب، مهما اشتدت خطورتها، تدور ضمن اطار قواعد «الحق» و«الشرف». ولقد خرقت هذه القواعد في اغلب الاحيان، ولكن الاحتجاجات ضد هذا الخرق تؤكد بحد ذاتها وجود القواعد.

ان هذا المفهوم للحرب كان يفترض ان بين الامم المتصارعة قيماً وقناعات واحدة، تتجسد بقوانين وطقوس متبعة، وكان التصرف الاسمى يتمثل في استخدام القوة الصرفة في زمن محدود مع افتراض ان هذه القوة ستكون عادلة.

واني لاذكر ان اول ما قاله جنرال الماني للضباط الاسرى في حزيران ١٩٤٠: «سادتي، لقد كان قدر الاسلحة ضدكم».

هذا هو المفهوم القديم. ولكن في عالم خال من الايمان والقيم المقبولة جماعيا، يمكن ان تغدو الحرب ظاهرة مختلة لا يحكمها قانون، دون بداية «معلنة» ودون نهاية معترف بها، دون مراقبة وبلا قانون. وتكمن ميزة المفهوم الهيغلي- الماركسي للحرب في انه يعطي تبريرا فكريا عميقا للغريزة الكامنة داخل الانسان العنيف الراغب في جعل الحرب قانونا دائما للحياة الاجتماعية، كما هي الحالة في النظام البيولوجي، حيث تتصارع الكائنات من اجل الحياة.

لقد كان هيغل، رغم مثاليته، يفترض ان المعارضة تشكل نابض الجدلية. وكان يدخل صراعا راديكاليا وضروريا حتى في مجال الافكار المجردة. وكان يستبدل فكرة المفاهيم التي يكمل احدها الآخر بفكرة المفاهيم التي يعارض احدها الآخر. وكان هذا التناقض (هذا التدمير المتبادل للافكار) يشكل عنده شرط الاتحاد. واننا لننسخ هيغل اذا اكتفينا بالحديث عن «وحدة المتناقضات» عنده، والتعبير الاصح هو القول بان التناقض عنده عبارة عن منبع للتقدم والتركيب.

واذا نقلنا هذا المفهوم السامي والصافي من مجال الافكار الى مجال الاحداث والاعمال الوطنية، وصلنا بسهولة الى الفكرة القائلة بان الحرب هي القانون الدائم للعلاقات، وان من الضروري عدم استغراب هذه الفكرة وعدم العمل لاضعافها، طالما

ان الخير الاعلى لا يمكن ان يأتي الا من التعارض الاقصى.

وهكذا يزول الفارق بين السلم والحرب، **ليس لان كل شيء يصبح سلما الى حد ما، حتى الحرب نفسها** (الامر الذي كان يشكل مفهوم الحروب الاقطاعية في عصر «الفروسية»، والحروب الملكية في عصر «حق الافراد»، والحروب القومية في عصر «اتفاقية لاهاي»، **بل لان كل شيء يعتبر حربا الى حد ما، حتى السلم نفسه** (الامر الذي يفسر ظهور تعابير متناقضة كان لا بد من ابتداعها مثل: «الحرب الغريبة»، و«الحرب الباردة»، و«الحرب الساكنة»).

ان هناك سببا عميقا يدفعنا الى ان لا نتصور بعد الآن، في حالة اندلاع حرب محتملة، حدوث ظاهرة مثل «اعلان الحرب» او «الهدنة» او «معاهدة السلام». واذا كانت الحرب هي الحدث المستمر، والحوار (الجدل) الداخلي للتاريخ، فاننا لا نستطيع ان نحدث على هذا المسار سوى انقطاعات مصطنعة، ولكن المسار يبقى ولا يتوقف ابدا.

واذا كانت الحرب نابض التاريخ، فان علينا ان لا نفهم كلمة الحرب من خلال الشكل العسكري التقليدي فحسب، هذا الشكل الذي لا يمثل سوى حالة خاصة. ان الحرب بواسطة الاسلحة لا تقع الا عندما يُرى بأنها «ضرورية جدليا»، ويمكن استبدالها بمجابهات اكثر راديكالية مثل «الصراع الطبقي»، او بأشكال غير منتقدة مثل «هجوم السلام».

ان هذه الاعتبارات تساعد على فهم ماهية الاستعمالات الممكنة لفكرة الشمولية[1]

---

(١) بعض النصوص:

ليست اولوية الاسباب الاقتصادية في تفسير التاريخ هي ما يميز بشكل حاسم الماركسية عن العلم البورجوازي. ولكن التمييز يأتي من فكرة الشمولية. ان مقولة الشمولية، السيطرة الشاملة والحاسمة للكل على الاجزاء، تشكل جوهر طريقة ماركس التي اخذها عن هيغل، وطورها بشكل جعل منها الاساس المبتكر لعلم جديد تماما. ان سيطرة مقولة الشمولية تمثل دعامة المبدأ الثوري في العلم» (جورج لوكاس).

«على عكس ما وراء الطبيعة، فان الجدلية تنظر الى الطبيعة لا كتراكم صُدفي للاشياء، للظواهر المنفصلة الواحدة عن الاخرى، والمعزولة، والمستقلة عن بعضها، بل ككل موحد، متماسك، حيث الاشياء والظواهر مترابطة فيما بينها عضويا،

ولنر الآن ميزة فكرة «الصيرورة» في العمل الانساني، وفي الحرب بشكل رئيسي. ان هذه الفكرة تعتبر قبل كل شيء ان العمل في كل مجال يكون اكثر فاعلية عندما يستثير عكسه، ويجابهه، ويتغلب عليه. ومن هنا يمكن ان نفهم لماذا اعتُبر الصراع الطبقي- الذي يشكل الصراع الاكثر ديمومة والاشد حدّة بين بني البشر- المحرك الاول للتاريخ. وبما ان قوة التركيب، تتعلق بعنف النقيضة، فان احدى قواعد العمل ستكون في خلق خصم واعطائه اكثر السمات تناقضا مع سماتنا، واكثرها قدرة على استثارة العدوانية. اي ان اول موقف للعمل السياسي او الحربي يتم في خلق عدو مرعب بغية استثارة قوى النفور.

ولكي يكون هذا التناقض جدليا وموجودا باستمرار، فان من الضروري ان يبقى بشكل دائم. من هنا يأتي الميل الى اعطاء صفة العدو لشخص قريب لا يفصلنا عنه سوى شارع، بدلا من اعطاء هذه الصفة لشخص بعيد يقع وراء الحدود. ويصبح العدو الطبقي اهم من العدو الخارجي، وتغدو الحرب الافقية بين الطبقات اهم من الحرب العامودية بين الأمم (١).

وتمتلك هذه «الصوفية الجدلية» ميزة رائعة، تتمثل في تحويل الامل الى يقين. ان العمل بحاجة الى ايمان، والامل يسبق البديهية. ولكن الايمان العادي يضم ايضا شيئا من الشك. وينطبق هذا القول حتى على الايمان الديني. وتعتبر الجدلية هنا كقانون ضروري. ومن الممكن ان تتأخر نتيجتها فلا تأتي فورا، ولكن لا يمكن ان لا تكون. وحتى الفشل، سواء كان كبيرا او مكررا، فانه لا يدخل في الحسبان، اولا ينبغي ان يثير الدهشة، طالما انه

ومتعلقة احداها بالاخرى، وتؤثر على بعضها بشكل متبادل».

«ولهذا، فان الطريقة الجدلية تعتبر ان اي ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا يمكن ان تُفهم اذا ما نُظر اليها معزولة، بعيدا عن الظواهر المحيطة بها، لان اي ظاهرة في اي مجال من مجالات الطبيعة يمكن ان تصبح بلا معنى اذا ما جرى تقييمها خارج الظروف المحيطة، اذا ما عُزلت عن ظروفها. وعلى العكس، فان من الممكن فهم اي ظاهرة وتفسيرها اذا ما قُيِّمت من زاوية ارتباطها الوثيق مع الظواهر المحيطة، اذا ما قُيمت وَفق حالتها المتأثرة بهذه الظواهر» (جوزيف ستالين).

(١) يقول غوديما في كتابه عن الجيش الاحمر ان «حرب الجماعة» كانت تضم مجموعات مهمتها زيادة حدة الصراعات.

«كانت تعمل على الساحة خلايا اندعاية المكلفة بزيادة حدة الصراعات بين قوات الاحتلال والسكان المحليين» (١٣٩).

مرحلة ضرورة، وبشير بالنجاح النهائي.

لنفحص اخيرا ميزان الانسانية المتكاملة. ان الماركسيين لا يخطئون عندما يقولون بانهم يهتمون بالانسان قبل اي شيء آخر. نعم الانسان. والمقصود بذلك الانسان الجماعي، الذي ينسجم مع اسلوبهم في التفكير والعمل. وبما أنه لا يوجد بالنسبة اليهم اية نقطة تعريف سوى هذا الانسان الشامل، فان اعتبار الانسان يصبح اهم من كل شيء آخر، ويغدو المطلق الوحيد.

إن مثل هذا التكوين يقدم لرجل الحرب ميزة، بان يضع تحت عينيه باستمرار حقيقة يدفعه اختصاصه دائما الى نسيانها او تجاهلها، وهي: افضلية النتيجة النفسية، والاهمية الاساسية للعامل البشري. ان استخدام الاسلحة في الحرب يستهدف تحقيق نتيجة اخرى غير السلاح. اذ ليست النتيجة المطلوبة تدمير سلاح معاد، بل التأثير على نفسية الانسان الذي يحمل هذا السلاح. وبكلمة اخرى، ليس السلاح سوى وسيلة من جملة وسائل متعددة اخرى، تستهدف كلها خلق الخوف لدى الخصم، بشكل يحمله على اخضاع ارادته لارادتكم. وهذا هو الهدف الوحيد للحرب.

ومن الواضح انه اذا أمكن تحقيق هذه النتيجة بوسائل اقل تكلفة من الحرب، ادى ذلك الى توفير كبير. ولقد حاول الجميع الوصول الى ذلك بميكانيكية التهديد، والارهاب، والخداع، والمتمثلة بعرض السلاح لتجنب استخدامه. وحتى في ساحة المعركة وخلال استخدام الاسلحة، فان عددا من تصرفات المحارب تتمثل في اثارة خوف الخصم. ومن الواضح ايضا انه في الانظمة التي لا يكون الجندي فيها اختصاصيا (محترفاً) بل مواطنا عاديا، يمكن تحقيق النصر اذا امكن اقناع الجندي الخصم بأنه أخوك وليس عدوك، و ان عليه ان يُقلع عن استخدام سلاحه، بل وان يسلمك هذا السلاح ايضا.

ويمكن ان نتصور، انطلاقا من هذه المبادىء الاولية (التي تعطيها وسائل الدعاية الحديثة كالصحافة والاذاعة اهمية كبيرة) حربا من النوع النفسي، تكون فيها الحرب العسكرية حالة خاصة. ويمكن ان نتصور، على سبيل المثال، احد الخصمين ينطلق الى الحرب وليس معه من سلاح سوى الدعاية والقناعة بأن اسلحة العدو ستعمل لصالحه، وان العدو المتأثر بالدعاية سيسلمه هذه الاسلحة، الامر الذي لا يجعل الاقناع سلاحا

فحسب، وهذا شيء جيد، ولكنه سيقدم إليه اسلحة الخصم ايضا، وهذا أفضل. وفي مثل هذه الحالة تكون الحرب نوعا من التحول العكسي الجدلي المطلق (١).

ولا بد ان تتولد لدى قادة الشعوب يوما ما، فكرة تقنية جديدة تكون اقرب الى سيكولوجية الجماهير منها الى استراتيجية الجماهير المسلحة، وتستهدف التأثير المباشر على البنية التحتية اللاواعية لدى الانسان. لم لا تُستخدم المعارف الجديدة التي نملكها عن اللاشعور، وعن الحلم والهذيان، وعن الايحاء، لم لا تُستخدم الى الحد الاقصى لتفتيت القوى التي تجابهكم، والتي هي في جوهرها قوى نفسية؟ وليس علي أن اذكركم بتقنية التفتيت هذه. إنها تستخدم عددا من المشاعر التي كشف لنا الطب النفسي وجودها وقوتها، ومن بينها مثلا «الشعور المرضي بالخطأ». ومن الواضح انه اذا امكن اقناع شخص (او مجموعة) انه مخطئ بشن الحرب عليكم او مجابهتكم، أمكن بالتالي الوصول دفعة واحدة، وبوسيلة سهلة جدا، وغير هجومية تقريبا، الى النتيجة التي يجري السعي لتحقيقها بواسطة الترسانة الحربية واستخداماتها الدامية. وبالاضافة الى ذلك، فقد درس البعض واوضحوا في بعض البلدان، الميزة الناجمة عن تحديد المذنبين او الضحايا الجماعيين، حيث تتمثل الخطيئة في الانتساب الى مجموعة اجتماعية او سياسية او عرقية. ويمكن تحقيق تقدم آخر في هذا المجال.

ومن الجدير بالملاحظة ان كل هذه الطرائق، سواء استخدمت من قبل عقائديين او رؤساء «ماديين»، عبارة عن اساليب للاقناع تفترض تفوق الفكر على الجسد، وتفوق الفكرة على المادة، والعقيدة على القتال. ويمكن القول ان التعليم وبث العقيدة ربما لم يتما في اي مجتمع بالقوة التي يتما بها في المجتمعات الخاضعة لهذه الطرائق، والتي تدعي انها «مادية».

---

(١) ليس هذا طوباويا. ويؤكد ماوتسي تونغ في كراس (استراتيجية الحرب الثورية): «ان علينا ان نحصل على جزء من انتاج الاسلحة المصنوعة في لندن وهايانغ، والتي ينبغي ان تصل الينا في قطار امدادات العدو» (ص ١١٦). واننا لنجد هنا صعوبة تثقل على تسليح كل البلدان الراسمالية، اذا لم تكسب ولاء الشعب. وتتمثل هذه الصعوبة في ان الاسلحة التي تعدّها هذه البلدان يمكن ان ترتد ضدها.

٢ـ السلبيـــات :

يتمثل جوهر الطريقة الهيغلية في أننا نضع أنفسنا باستمرار (للحكم على الأحداث) من وجهة نظر المطلق، أو بمعنى آخر: من وجهة نظر الله. ومن الواضح أن الله لا يمكن أن يملك معرفة جزئية، مقسمة الى قطاعات (اقتصادي، واجتماعي، وسياسي)، ولكن معرفته تحيط بكل أقسام التجربة، وتشمل في الأمر الواحد الحاضر والماضي والمستقبل.

والسؤال هنا يتعلق فيما اذا كان بوسع هذا الكائن المحدود المسمى انسانا بلوغ هذه المعرفة الشاملة. من الواضح انه اذا كان الانسان عاجزا عن الاحاطة بقانون التاريخ الكامل، فانه من باب أولى عاجز عن توليد المستقبل. واذا ما أصر على الاعتقاد أن بوسعه تحقيق ذلك بواسطة «الجدلية»، فاننا نخشى أن تغدو هذه «الجدلية» معرفة متدنية، ومصطنعة، ووهمية. انها لا تعطيكم سوى مظهر العلم، كما أنها تحرمكم قبل كل شيء من الضروري المتمثل في البحث المفتوح والمجرّد والجاد عن الأمر الحقيقي الذي يكون دائماً معقداً، متعدد الأشكال، وغير متوقع.

انطلاقا من هذا المنظور، فانني أعتقد أن استخدام مثل هذه الطريقة، من قبل العباقرة أو الأشخاص العاديين، يؤدي بالضرورة وبشكل محتوم الى «تقديم» الذكاء بشكل فوقي، وجره الى حالة الجهالة التي تدعي أنها علم، ولا يمكن أن تؤدي على المدى الطويل الا الى نتائج ضارة، لأن على الفكر أن يخضع للحقيقة لا أن يُخضع الحقيقة لقوانينه.

لذا فان هناك ما يدعو الى الخوف من أن تُسخَّر جدلية التاريخ في النهاية لأغراض متدنية الى حد ما. وأن لا تُستخدم لالتقاط مخطط التاريخ العام (الأمر الذي كان بالامكان اعتباره رائعا لو انه كان ممكنا)، بل تستخدم لتبرير حالة ما أو قوة معينة، مع التأكيد أن لهذه الحالة قوة خفية، باعتبارها لحظة ضرورية لتطور ضروري في اطار تاريخ ضروري.

ولقد بحث الانسان دائما عن هذه القدرة على تأليه الأمر الواقع، بغية الوصول الى الطمأنينة، أو من أجل الحصول على خضوع المهزومين وقبولهم بهزيمتهم، وها هي الجدلية تعطي الانسان أخيرا هذه القدرة.

إلا أن هذه الجدلية قد تؤدي الى الاستعاضة عن فكر المنهج (الذي يحاول التطابق مع الحقيقة) بفكر الاسلوب (الذي يسعى الى تصوير الحقيقة بشكل يتطابق مع مبادئه)

ويمكننا أن نتساءل ما اذا كانت ايجابية الفاعلية (التي أشرت اليها) تتوازن مع سلبية عميقة. والتجربة في نهاية المطاف أقوى من كل شيء

بيد أن هناك سلبية أشد خطورة، لأنها تلامس الجوهر الانساني. وتتمثل هذه السلبية في أن هذه العقيدة تحمل تناقضا داخليا يرجع إلى أنها تتجاهل معضلة الغايات. ويظهر هذا الأمر في تذبذب الفكر بين مفهومين للصيرورة: يرى أولهما أن التحول يتم دون انقطاع، من شكل الى شكل، ومن تفاعل الى تفاعل، ومن سلم مؤقت الى صراع مؤقت، دون أن يكون هناك نهاية توقف حركة التاريخ.
في حين يفترض الثاني أن حركة التاريخ هذه ستتوقف أخيرا عندما تصل الى النهاية المعتبرة (من منطلق ذاتي) نهاية تتسم بالكمال. ولقد ظنّ هيغل بأن هذه النهاية التي تؤمن التوازن ستكون الدولة الملكية البروسية، بينما يرى الماركسيون أن هذه النهاية ستكون البروليتاريا العالمية المنظمة من قبل السلاف. ولكن لماذا ينبغي أن تتوقف هذه الجدلية؟ ولماذا ستكون الملكية البروسية أو دكتاتورية البروليتاريا نهاية التاريخ؟ إن العالم الذي نعرفه متحرك، ولا شيء يبقى بشكل دائم.

وأخيرا، اذا لم يكن هناك قاعدة خارجية وعليا للحركة، مهما كان الاسم الذي تأخذه هذه القاعدة (عدالة، حقيقة، مثل أعلى، إله مجهول، قوة غامضة، قيمة)، واذا كان ما ينجح في لحظة محددة (العنف أو الفعل، قوة الأشياء أو قوة الأشخاص) هو القيمة المطلقة، فهل سيكون أفضل ما فينا (الفكر) راضيا؟ يقول الشاعر جوفينال انه لا ينبغي علينا «من أجل أن نحيا أن نفقد مبررات الحياة».

ويمكننا أن نوجز هذا الميزان كما يلي: ان تطبيق مبادىء ماركس في مجال الوسائل يتمتع بقوة كبيرة، إلا أن تطبيق هذه المبادىء في مجال الإنسان الكامل يبقى ضعيفاً، لأنه يهمل مسألة الغايات (١).

* * *

---

(١) لقد قام بهذه الانتقادات مفكرون جد متباينين. وهي مستقلة عن أي ارتباط بعقيدة أو روحانية ما. ففي بحث يحمل اسم «المادية والثورة» نُشر في مواقف ٣، كتب جان بول سارتر:

«مما لا شك فيه أن الثوري يحذر القيم خوفا من الخديعة، ومن جهة أخرى، فان كونه يقبل التضحية بحياته من أجل

بين هذه المزايا وهذه السلبيات، يمكن التساؤل أيهما أكبر؟ وما هي الجهة التي تملك فرصة أكبر للنجاح؟.

للاجابة على التساؤل الأخير، فانني سأميّز بين المباشر والبعيد، وهل نضع أنفسنا في سياق قصير المدى أم في سياق طويل الأمد، وهل نتبنى وجهة نظر تكتيكية أم وجهة نظر استراتيجية، وهل يتوافر الوقت أمامنا أم لا يتوافر.

أعتقد أن الطريقة الهيغلية- الماركسية متفوقة في الحالة الأولى. ويرجع ذلك الى سببين: أولهما أننا لا نزال في مرحلة النقيضة. فلقد شهد الماضي دون شك استغلال السلطة واستعمالها بشكل سيء، الأمر الذي أدى الى حركة التناقض. وما دام هذا الوضع بدون تصحيح، فإن سبب الاضطراب والحرب سيبقى قائماً، والذين لا يملكون ما يفقدون، سيبقون على استعداد للذهاب نحو الأسوأ.

والسبب الثاني. هو أن طريقة العمل التي لا تعتبر نفسها مرتبطة بالعقد أو القانون أو الوعد، والتي تعمل داخل عالم محكوم بقاعدة الحقيقة «البورجوازية»، وتستخدم «الجدلية» المفكّكة، وتسمح لنفسها بالخداع عندما يكون ذلك ذا فاعلية سياسية، تملك بالضرورة تفوقا على غيرها من طرائق العمل.

لكن اذا وضعنا أنفسنا في السياق طويل الأمد، وجدنا أن بوسعنا التأكد من أن الطريقة التي تتجاهل عمليا القيم العليا لا يمكنها أن تنجح طويلا.

وبما أن مدة حياتنا تفرض علينا السياق قصير المدى، فإن علينا أن نجد ضمن هذا السياق القصير المزايا الكامنة في السياق الطويل.

نظام لا يعتقد أنه سيرى مولده، يفرض الاعتقاد بأن هذا النظام المستقبلي يعمل بالنسبة اليه كقيمة.

«لهذا ينبغي العودة أو الوصول الى حكم رفيع. ولا يمكننا الاكتفاء بالتفسير، بل ينبغي الحكم على التفسير وعلى المفسر- وبالاختصار ينبغي القيام باختيار، والبدء باجراء الاختيار بين فلسفة «اللامعنى» وفلسفة الحقيقة، بين نظام يأخذ بالاعتبار كل شيء وفكرة تلتقط شيئا ما. وحتى نعود الى التاريخ، قد يكون من المفيد أن يتبدل المرء حتى يتلاءم (تكتيكيا)، شريطة أن لا يكون هذا التبديل كبيرا. وشرفه يتوقف غالبا على الوفاء، حتى لو كان هذا الوفاء دون أمل» (شباط ١٩٥٣- NRF).

لذا، يبدو لي أن علينا أن نستوعب ما هو حقيقي وجيد في المفهوم الهيغلي. وباعتقادي أن هذا المفهوم لا يمثل خطأ بل هو خطأ كبير. وعلينا أن نركّز على كلمة كبير، لأن بين الخطأ الكبير والحقيقة الكبيرة تشابه. وأعتقد أنني استطعت أن أوضح لكم أن تغييرا صغيرا يمكن أن يحول الطريقة الهيغلية الى طريقة للحقيقة والسلم. والتصحيح المطلوب اجراؤه تصحيح جوهري يشمل اعماق أعماق العقيدة. ويكفي أن نعطي هذه الحركة نهاية، وأن نعطي هذه الجدلية وحدة قياس، وهذه الوسائل غاية. ولنترك مثل هذا الأمر للفلاسفة والروحانيين.

على الصعيد العملي للعمل الانساني، تذكرنا الطريقة الهيغلية أن الحرب ليست سوى وسيلة للتأثير على الوعي والارادات، وأن الحرب أداة في اطار نشاط أعلى هو السياسة، وأن السياسة نفسها في خدمة فكرة الانسان. هذا هو في الحقيقة ما افترضه دائما الناس والسياسيون والمقاتلون.

ان الشعوب لا تخوض الحروب الا للانتقال الى حالة أسمى، الى سلم أرسخ من حالة الظلم السابقة. لقد قال فوش أمام قبر نابليون: «فوق الحرب يوجد السلام». ان الحرب وسيلة (وفي بعض الحالات الوسيلة الوحيدة الممكنة مع الأسف) للوصول الى سلم تركيبي، لا يتمثل في تدمير الخصم، بل في دمج حقيقتين داخل كرة، بحيث تجد كل حقيقة نفسها بعد الدمج اكثر مما كانت تجد نفسها وهي منفردة.

فوق الحرب يوجد السلام. وهذا السلام هو انتصارنا الوحيد.

فلسفة الردع في العصر النووي

اذ ربحت فستربح كل شيء، واذا خسرت
فلن تخسر شيئا.

ان اقتراحنا هو في القوة التي لا نهاية لها،
عندما يكون هناك متناه ينبغي المقامرة به، في
لعبة فيها مصادفات مماثلة للربح والخسارة،
وربح اللامتناهي.

باسكال

عندما سيلجأ مؤرخو المستقبل البعيد الى تقويم العصر الذي نعيش فيه في الوقت الحاضر، سيكون امامهم موضوع يصعب التفكير فيه. وسيقولون من دون شك ما نقوله بشيء من عدم اليقين: «كان ذلك الزمن زمن تحول كبير، وتبديل في العصر مماثل للعصر الذي اكتشفت فيه النار، وكان عصرا رائعا اكثر بسبب نتائج النار في الاعماق، النار النوويه». فهل سيتردد هؤلاء المؤرخون المدققون في تحديد التاريخ الدقيق **للتحول**؟

ان حادثةهيروشيما ستكون دون شك التاريخ الاقل مثاراً للجدل. ولكن مثل هذا الحكم سيخفي الاصل. فالتاريخ لا يبدأ بمشهد، بل هو حصيلة تأثيرات خفية طويلة الأمد. وليست هيروشيما الا بزوغ هذا التاريخ. ولكن الاصل الحقيقى للتحول سابق جدا لحرب ١٩٤٠: أفلم يكن اصل قنبلة هيروشيما هو اكتشاف بلانك[1] عن «الكوانتا» Quanta؟ ومهما يكن الامر حول هذه النقطة فقد بدأ باكتشافها عصر جديد بدّل كل شيء

(١) بلانك- ماكس فيزيائي الماني (١٨٥٨-١٩٤٧)، وضع في العام ١٩٠٠ نظرية «الكوانتا» التي تعتبر اساس الفيزياء الحديثة. حاز على جائزة نوبل في العام ١٩١٨. (المعربان)

تقريبا. ونحن نملك الآن ميزة كبيرة- وسيحظى بها اولادنا اكثر منا- وتتمثل هذه الميزة في هذا التطور، المحفوف بالمخاطر ككل اصل، والمعرض للاخطار والهش ككل بداية، خاصة وانه قد يكون تقدما هائلا- ولكنه سابق لاوانه، اذا لم يكن الفكر ناضجا لحمله.

وعموما، عندما نتحدث عن تحول، فإننا لا نفكر الا بهذه الثورة الفيزيائية المتمثلة باكتشاف الطاقة الذرية. ولكن سمو ومأساوية هذا الوقت هو التضافر غير المتوقع لعدة اكتشافات بعضها مستقل عن البعض الآخر.

فالثورةالسبرنيطيقية[1] مثلا،غير مرتبطة بالثورة الذرية. وتتم الثورتان في الوقت ذاته تقريبا. وتتعلق الثورة الذرية بالمادة، في حين تهتم الثانية بالفكر. وستسمح الآلة بحساب المحتمل وغير المحتمل ليس بالنسبة الى الوقت الحاضر فحسب، بل بالنسبة الى المستقبل ايضا، بغية تسليط الاضواء على المستقبل، وتوقع ردود الافعال، واتخاذ القرارات المعقولة. وانه لشيء غريب ان يوكل امر المحاكمة والقرار لجهاز آلي.

اننا لم نفكر حتى الآن إلا بالحرب القديمة، التي سبقت العام ١٩٤٥، عام التحول. وهيغل ذاته انسان جاء قبل التحول، وممثل قديم من عصر ما قبل التاريخ، اذا بدأ التاريخ الثاني بالعام ١٩٤٥، عام الاستخدام الأول للقنبلة الذرية. وقد تجاوزنا الآن هيغل وماركس، ويستشعر معاصرونا بغموض انهم يعاصرون بداية مفعمة بالالغاز، وان الغد لن يكون انعكاسا للامس. وسنجد فجأة ان مفاهيمنا السابقة- حتى اكثر هذه المفاهيم تطورا- قد فقدت قيمتها. ولا يمكن التفكير بأن تكون اية حرب محتملة مشابهة للحرب العالمية الثانية، مع انه لم يمض على نشوب هذه الحرب ثلاثين عاما- في حين كانت الحرب العالمية الثانية مشابهة كثيرا للحرب العالمية الأولى، التي لم تكن مختلفة كثيرا عن حروب نابليون، من الناحية الاستراتيجية على الاقل. ان هذا التحول الناجم عن الالتقاء غير المتوقع لعدد من الاكتشافات التي تمت في العام ١٩٤٥ والتي عجلت بها الحرب الاخيرة، يؤثر على كل مجالات التقنية والسياسة والحياة الجماعية. ولكن هذا التحول ظاهر في الحرب (في اعدادها، وفي مجابهتها) اكثر من اي مجال آخر.

---

(١) السيبرنيطيقا وهو العلم الذي يدرس ميكانيكات الاتصال والتوجيه في الآلات ولدى الكائنات الحية. (المعربان)

ان التفكير بالجديد، وبغير المكتشف بعد، ممنوع تقريبا على الانسان الذي لا يعتمد على الذاكرة او على التماثل. فالخيال وهمي ايضا. ومع هذا، ورغم اننا قد نهلك بسبب اكتشافاتنا، فإن علينا أن نفكر بالجديد، لأننا لا نتحكم الا بما نفهمه.

وعلينا **ان لا نفكر بالجديد كاختصاصيين**. لان مأساة العصر الذي ندخله اليوم تكمن في انه عصر تتضافر فيه الاكتشافات المستقلة وتلتقي، مع ان تخصص الباحثين وسير كل واحد منهم على طريقه الخاص، هو الذي جعل هذه الاكتشافات ممكنة. فعالم الذرة لم يكن يهتم بالسيبرنيطيقي، كما لم يكن عالم الاحياء يهتم بعالم الرياضيات. وينطبق القول نفسه على الفيزيائي الذي لم يكن يهتم بالمحلل النفسي، وعلى العالم بشكل عام الذي لم يكن يهتم بعالم الاجناس كما لا يهتم هذا الاخير بعالم اللاهوت. وفي عصر تضافر العلوم، الذي تتوحد فيه البشرية اكثر من أي يوم مضى، وتتضامن في مصيرها، وتتعجل تاريخها (تسارع والتقاء يسيران جنبا الى جنب) نجد ايضا تباعدا شبه حتمي بين الباحثين. فهم يجتمعون في مؤتمرات الاختصاصيين. ولكن اصحاب الاختصاصات المتباينة يتجنبون الحوار فيما بينهم، عندما يكون المقصود الوصول الى تركيب رفيع، ووضع فكرة **الكل** تحت ضوء الرؤية الواضحة.

ولهذا فان عصر العلم الذي تكون مادته كل العلوم، والذي يشكل المعرفة المنهجية للقاءات النهائية بين العلوم والمعارف لم يأت بعد.

ان هذا العصر يتهيأ. وقد كان العلم الشمولي يسمى في الماضي «فلسفة». الا ان كلمة فلسفة فقدت قيمتها اليوم. والمقصود هنا هو ايجاد مرحلة جديدة من الفلسفة، تكون تركيبية اكثر، واقل طموحا، واقل تناسقا، واقل ذاتية، ولكنها جماعية ونابعة من جهد جماعي.

واذا ما انتهيت من كل هذا الى النظر في الاستراتيجية في هذه الاعوام الاخيرة، فإني الاحظ انقلاباً في القتال والفكر. فكم من الدراسات ظهرت، وكلها تثير الفكر الى اعلى نقطة، لاننا نرى فيها العسكري الحقيقي والسياسي المحنك يرتفعان- تحت ضغط قوة الاشياء- الى مستوى اعلى من الموضوع العسكري او الاقتصادي او السياسي، للدخول في

هذا المجال الانساني للفكر، بحثا عن قيم سامية كانت حتى الآن مجالا مغلقا او محددا برقابات متعددة!

إن التفكير بالحرب الجديدة في أعلى عمومياتها، ومن وجهة نظر الفيلسوف، هو الغاية المرجوة من هذه الدراسة.

ان للشكل الحالي للحرب، في السلم وفي النزاع، صفة رئيسية هي أنها «ذرية» و«سيبرنيطيقية» في الوقت ذاته، وتضع في الحساب اعتبارات مادية (القوات) واعتبارات نفسية (القيم). والحقيقة ان الحروب راهنت دائمًا على رافعتي القوة والخوف. وكانت القوة المادية ملحقة دوما بالقوة المعنوية. فالانتصار يعني ارهاب الخصم، واذا تم التوصل الى الانتصار دون عمل فإن الحرب تتوقف. وتسمى هذه الفترة عندئذ بالسلم الذي كان منذ القديم سلما مسلحا، اي سلما مستندا الى الخوف المتبادل. وسيستمر هذا الوضع حتى تتطهر البشرية وتتحد.

ولكن تقدما مرعبا يحدث في مجال التسليح في ايامنا هذه لاول مرة في التاريخ، ونجد بالتالي حالة جديدة وحادة من الخوف تبدل المجابهة بين الجماعات تبديلا جذريا، قد يكون نحو الافضل او نحو الاسوأ.

ان دراسة أثر هذه الابعاد الجديدة، وربطها بالمسائل العليا للرهان واللامتناهي، والانتحار، والوجود، هما موضوع هذا البحث.

الشك والعمل والفكر:

اننا راغبون بالمعرفة، والمعرفة بيقين أو بوضوح على الاقل. ونادرا ما يكون هذا ممكنا في اللحظة ذاتها. ولكن بوسعنا ان نتقدم، وننتظر، ونؤجل للمستقبل، وان نترك لمن يأتون بعدنا تقاليد فكرية مناسبة.

وليس من الممكن ان نؤجل كل شيء للمستقبل خلال العمل. فالعمل عاجل وفوري. لذا فإن علينا العمل وسط الشك، كما لو اننا واثقون، وان نخاطر، وان نراهن. هذه هي مفارقة العمل التي اقلقت ديكارت.

يعود بنا هذا الى القول بأن الانسان، نظرا لانه كائن عاقل، يعيش على

الاحتمالات. وعليه ان يعمل دون وضوح ووسط ظلام معين. فهل هذا هو مبدأ وعظمة السلوك الغريب المسمى بالحب؟

ان هذه المفارقة التي تلقي بظلها وسموها على حياتنا، في الامور الصغيرة والكبيرة، تنفجر الى اعلى نقطة في الحرب التي تعتبر عملا جديا. وقد قال كلاوزفيتز ذلك بعبارات رائعة في ايجازها. ان القائد الحربي يعيش ويقرر وسط ضباب الشـك، وهذه هي مهنته.

ومن السهل ان نُبرز بأن النصائح والقواعد التي ننسبها للاستراتيجيين تتعلق بالاحتمالات.

١- ذاتيا: المطلوب من رجل الحرب ان يكون جريئا، وان يتقدم الآخرين، وان يبقى حازما في قراره، وان يبقى واثقا من نفسه بعد الهزائم الحتمية الخ... والغرض من هذه الحِكَم هو ردم الهوة بين **الفكر** (الذي يرى الاشياء الممكنة، والذي لا يبلغ الوضوح ابدا) **والعمـل** (الذي لا يرى الا الحقيقي والذي يتم في جو التردد والشك). فالشجاعة، والقرار، والمثابرة، نوع من خداع الذات، وذلك بالمعنى التالي: ان ما هو مطلوب من القائد هو ان يعمل كما لو انه واثق من نتيجة عمله، مع انه يعمل في الحقيقة وسط الشك. وهذا يعني ان المطلوب منه ان يكتفي بالمراهنة مع الايمان بالربح.

٢- موضوعيا: ان الهدف من مبادىء الحرب هو تقليص الهوة بين الممكن والحقيقي، وذلك باقتراح سلوك معقول يزيد احتمالات النصر، او يضمن تدارك الهزيمة. وعلى سبيل المثال، فان فن الحرب يتضمن ان نخلق امام الخصم اوضاعا تجعل من الصعب عليه معرفة كيف يوزع قواته. ويمكن تحقيق ذلك بتقليل احتمال هجومه في الزمان والمجال. ويجد الهجوم نفسه عندئذ موزعا وقاصرا تقريبا، الامر الذي يمنع الخصم من معرفة وتوقع «الحدث» المتمثل بالهجوم الذي يُعدّ ضده. وقد كان فوش يُعرّف «الحدث» كخطأ في توقعات الدفاع. والمفاجأة، من هذه الزاوية، هي الحدث الذي لم يتوقعه العدو واعتبره بعيد الاحتمال.

والسُرعة خلال التنفيذ هي ايضا سلوك يفتح باب الاحتمال. ليس لانها تعطينا احتياطيا زمنيا وتحرم الخصم منه فحسب، بل لانها تنزع عن الزمن ايضا صفة الابهام وتعدد الوجوه، وتقلص امام الخصم الخيارات الممكنة التي تكون سببا لقلقه وانتشاره،

وتقلل الزمن **الممكن** إلى زمن واحد **فعلي** هو الزمن الذي اخترناه.

اما مبدا **الامن والاقتصاد بالقوات**، فان هدفهما زيادة حرية عملنا وتضييق حرية عمل الخصم. ويمكن تعريف حرية إلعمل كقدرة على تحويل الامور الممكنة الى امور محتملة. وكلما كانت القدرة فورية، كلما كان حشد قواتنا في المكان- الزمان سريعا، وانفتح امامنا مجال لربح مزيد من المزايا. ولهذا فإن المفاجأة، والسرعة، والحركات الاستراتيجية البعيدة والسريعة لا تتم بدون ثمن كبير.

ان من السهل ربط التكتيك التقليدي للمعركة وفكرة التطويق والهجوم الجبهي بحساب الاحتمالات. واشير هنا الى ان التغلب على مشكلة الالتفاف حول «الاجنحة» عن طريق اختيار الجبهة المتواصلة في الحرب العالمية الاولى كان سببا لفوضى الاحتمال، لان احتمال الهجوم اصبح بعد ثبات الجبهة امرا ثابتا ودائما في كل نقطة من تلك الجبهة تقريبا.

واذا كان منظرو الحرب لا يواجهون هذه المسألة ضمن اطار البعد الاحتمالي، فذلك لان الفكر الانساني ينفر من مفهوم المُحتَمل، الذي لا يرد على السؤال بنعم او لا ولا يمثل الحقيقة او الخطأ، ولا يحدد ما اذا كان الامر موضوعيا او ذاتيا. ومن المفارقات ان العمل البشري الذي يجري وسط المحتمل في كل لحظة (أي الحرب) لم يجد عالم المنطق الذي يهتم به انطلاقا من الاحتمالات. وكان ارسطو قد رسم في احد كتاباته نظرية للفكر الاحتمالي فيما يتعلق بمعركة بحرية لم تجر بعد (هيرمينيا، فصل ٩ وعن طريق مصادفات الحرب هذه، وجد الاحتمال (بتردد) وسيلة لدخول المنطق.

وقد اخذ حساب الاحتمالات الذي كان باسكال يسميه «هندسة الصدفة» يزداد دقة منذ عهد ليبنيز وبرنوييي وكورنو وبوريل وفون نيومان وكل السيبرنيطيقيين[1]. وفي الماضي، لم يكن احد ليهتم بالالعاب والظواهر التي يتدخل فيها الاحتمال. وقد طرأ بعض التقدم عندما انتقلت الاستراتيجية الى مجال حساب الاحتمالات. ويكفي ان نتأمل روح

---

(١) من الطريف بأن نلاحظ ان باسكال مخترع حساب الاحتمالات لم يتوقف عن مهاجمة الضميريين Cusuistes من جماعة المسيح. ولكن من يكن «الضميري»، أفليس هو من علماء منطق الاحتمالات الذين يحاولون وزن احتمال الخير والشر في كل حالة؟

حرب من الحروب، او لعبة الشطرنج، او لعبة استراتيجية، لنرى ان طبيعة المسألة تتبدل عندما يكون هناك متصارعان، وإرادتان متنافستان، وان كل طرف يرد على كل ضربة تبعا لسلوك الطرف الآخر (سواء السلوك الذي يلاحظه، او السلوك الذي يفترض ان خصمه سيتبناه في المستقبل). فالرياضي والفيزيائي يكتفيان بدراسة العلاقات بين شيئين. ويحاول المحلل النفسي والفيلسوف تحديد العلاقة بين الفاعل والغرض. ولكن الاحتمالي يحسب العلاقة بين فاعلين متصارعين (١).

ومما يعقد المسألة ايضا، هو ان الارادة التي تجابهني لا تكتفي بمناوأتي، كما يتم في الصراع بين حيوانين مفترسين، ولكنها تسعى الى بلوغ ما وراء ارادتي، أي بلوغ فكري ومعلوماتي وفرضياتي والصورة التي تخيلتها لخصمي. فهي تعمل بحذق لتخلق حقيقة كاذبة ومظهرا مخادعاً. انها تخدع، وينبغي عليها أن تخدع.

انه لموقف غريب ومضاد للموقف الذي تتطلبه الاخلاق وتفرضه الحياة الاجتماعية. ولكن الحرب تقلب اكثر المفاهيم قدسية وتمجيدا، ومثلها في ذلك كمثل الالعاب التي تعتمد على قبول الجرأة المتهورة والخدعة.

ولكن اذا كان من واجب الطرف الاخر ان يخدعني، وكان من واجبي انا ايضا مراوغته وخداعه، فان المسألة تتعقد. ومن المتعارف عليه ان الحرب مجال الاوهام المتبادلة. وعليّ أن أحبط أوهام الخصم، وان اخلق لديه أوهاما جديدة. فما العمل؟

انني اضع نفسي مكان الخصم والمراوغ، واستنتج ماذا كنت سأفعل لو أنني قررت الخداع. واذا قررت ان اخدعه بدوري، فانني افترض بأنه يملك من سعة الحيلة ما يسمح له بتخيّل خدعتي ومجابهتها، فاحتال في حيلتي، وأتظاهر بالتظاهر لكي أخفى خطتي، وقد أتجنب خداعه لكي أخدعه بصورة أفضل. لقد قال هتلر الحقيقة احيانا، وكان ذلك خدعة في الخدعة.

الحيلة كفن للمحتمل:

الحيلة سلوك يزيد الشك لدى الخصم عن طريق الاقلال من هذا الشك لدى من

---

(١) راجع بيير دولاتيل، الفكر الاصطناعي، ص ٢٨.

يستخدمها. والتحايل يعني ايهام الخصم باننا موجودون في مكان ما في الوقت الذي لا نكون فيه، وان لدينا مشروعا معينا عندما لا نملك مثل هذا المشروع، شريطة ان يكون الايهام قويا بشكل يجعل الخصم (الذي يفترض بأن له قوة محدودة) يتخذ التدابير لمجابهة خطر وهمي، الامر الذي يصعفه في كل مكان آخر، وخصوصا في المكان الذي نريد توجيه الضربة منه. ان المراوغة تعني افساد حساب الاحتمالات لدى العدو.

فاذا عرّفنا الحيلة بهذا الشكل، نرى بأن اساس الاستراتيجية التقليدية هو الحيلة. وتستهدف الاستراتيجية احباط حيلة الخصم. ونذكر مثلا ان تنسيق القوات المدافعة بالعمق سلوك مبدؤه تأجيل لحظة الحسم، بغية امتلاك القدرة على مجابهة «كل احتمال». واذا كان الهجوم يمتاز على الدفاع، فذلك لأنه بالاضافة لمزاياه النفسية ينجح في اخفاء اتجاه الجهد الرئيسي اطول وقت ممكن.

وقد قلت ان من الواجب ان نحتاط من حيلة الخصم، وذلك بتصور الحيل التي يستطيع اللجوء اليها. ولكن يبدو ان الحيلة منذ «حرب طروادة» الى حرب ١٩٤٠ تربح دوما. والدليل على هذه المعارك التي دارت في ثغرة الآردين، وآرومانش...

من فكرة الحيلة والمباغتة (لان المباغتة نوع من الحيلة)، بوسعنا ان نستخلص ايضا تفوق الاوساط السائلة كالبحر والجو على الارض، لان البحر والجو يتحددان كمجال، أي كبيئة متجانسة تسمح بوقوع الامور المحتملة على نطاق واسع.

كيف يمكن احباط الحيلة؟ ان احباطها يستنتج من فكرة الحيلة ذاتها. فاذا كانت الحيلة تتضمن تضليل الخصم، او على الاقل بلبلة فكره ومشروعاته وقواته بوفرة الاحتمالات، فان بالامكان الانتصار عليه بزيادة عدد ونوع ومجال الاحتمالات قدر الامكان وخلال أطول وقت ممكن. ان عيب المخادع هو تكرار حيلة نجح بواسطتها. يقول احد الحكماء: ينبغي ان يبكي المرء في امسيات النصر، لان المنتصر غير قادر ابدا على مقاومة اغراء تكرار عمله. ويقال ايضا ان التعرض للخداع اكثر من مرة أمر غير مقبول، وان الاكذوبة لا تنجح إلا مرة واحدة. والمثل الذي ضربه الفاتحون الكبار رائع في هذا المجال. انهم يلعبون ويربحون. ويلعبون من جديد وبالطريقة ذاتها فيخسرون، لأنهم كشفوا لعبتهم أمام الخصم.

وإذا لم يحافظ الخصم على التكافؤ المتجانس للامور الممكنة، واذا فضل بعضها على البعض الاخر، تفقد هذه الامور الممكنة مرونتها، وتغدو عندئذ عبارة عن احتمالات متوقعة تقع على حدود اليقينات. ولقد لاحظ غيلبو «ان الحيلة الفعلية هي المحافظة على امور ممكنة متعددة. انها تنوع غير متوقع مَن القرارات، يستطيع الحاق الفشل بالنظام الذي اعتاد عليه الخصم». وقد دفعت هذه الملاحظة اميل بوريل الى القول: «ومع انه لا توجد طريقة كاملة للعب، فان بوسعنا ان نلعب مع الحصول على مزية بتغيير أسلوب لعبتنا». ان الذين يبقون مغلقين ويستحيل التأثير عليهم ليسوا أولئك الذين يسكتون دوما، بل أولئك الذين لا نستطيع ان نعرف ماذا سيقولون او يفعلون او يبتكرون، اولئك الذين يفاجئونك ويحيرونك بمباغتات معارضة. ان بقاء اعمالنا طي الكتمان يتطلب منا استخدام الصدفة.

ويعرف المحاربون السريون هذا. فالمحارب من رجال العصابات يصنع الصدفة: انها فكرة الكمين. وقد قارن الجنرال غامبييز في **سيف ديموقلس** طرق جنكيزخان واساليبه في القتال بطرق الشوانيين والفيتكونغ وأساليبهم. ومن المعروف ان سكان البلدان التي تكثر فيها الغابات والاحراج والادغال والمضائق، يطبقون عفويا هذه الطريقة في الاكثار من المصادفات خارج الجبهة وبعيدا عن خطوط القتال عندما يحتل بلادهم شعب يتسم بالقدرة على الحركة. ويرى المحاربون في القطعات النظامية ان هؤلاء الثوار «لا يتقيدون بقواعد اللعبة». وهم بالتالي شيطانيون. مع ان الثوار يطبقون بذكاء قوانين الاحتمالات، التي هي القوانين الاساسية لكل صراع في مجال الالعاب أو التجارة او السياسة او الحرب.

اذا اردنا التفكير بعمق في المصادفة وفن استخدامها، فان علينا ان نعيد قراءة باسكال

ان هذا المفكر المتعطش لليقين في مجال الشك ذاته، قد طرح على نفسه مسألة من أصعب المسائل وأكثرها اغراء وهي: تحديد خطوط للتصرف، بحيث يستطيع المرء في الاحداث الخاضعة للاحتمال، ابعاد العنصر غير الملائم، وضمان الحد الاقصى من فرص النجاح. واذا ما تحرينا الاعمال البشرية من اكثرها شيوعا وعمومية الى ارفعها واسماها، من الحياة العملية الى الالتزامات العليا، وجدنا بالتأكيد ان مسألة الاحتمال والرهان، هي

المسألة الوحيدة التي تشغل الفكر البشري سراً. وكل من سيضع القواعد الكفيلة بالاقلال من خفاياها والغازها سيغدو سيد العمليات.

وقد وجهتنا في ابحاثنا هذه عن الحرب الفكرة التالية: اذا كانت فلسفة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) هي الجزء العلوي من الفكر، فان ما يقابلها في مجال العمل هو الاستراتيجية.

وليس من المدهش ان فن استخدام الصدفة لقهر الصدفة والتغلب عليها باخضاعها لمشروعاتنا، يجد تطبيقه في العمل الحربي. وأن اكتشاف وسيلة توجيه مصادفات الحرب لصالحنا، في كل ظرف من ظروف الحرب، هو الرغبة الغامضة للرجل الحربي عِند قيامه بحساباته. واذا ما اردنا ان نطرح هذه المسألة في شمولها العلوي نقول:

هل توجد في مغامرات الوجود، كما في مصادفات الحرب، تدابير معينة جيدة تسمح لنا بالقضاء على الفشل؟ وهل بوسعنا السيطرة على **الصدفة** بمواقف ومسالك **مضادة للمصادفات؟**

من الواضح انه اذا كانت هذه التقنية موجودة، فانها تهم السيبرنيطيقي في المقام الاول، سواء كان رجل سياسة أو رجل حرب. ولكن ما اندر المفكرين العسكريين الذين واجهوا هذه المسائل بجدية وعقلانية ان «القادة الكبار»، و«كبار رجال السياسة»، والاسود والفهود او الثعالب، يحلون مثل هذه المسائل دون حساب واضح، واعتماداً على الحدس وحده.

ولقد كان طموح باسكال، امير الاحتمالات، القضاء قدر الامكان على ما نسميه من (وجهة نظر انسانية وذاتية) الصدفة السيئة، والحظ العاثر، والهزيمة، واللعنة. ونظرا لاننا لا نملك معلومات كاملة، وعلينا رغم ذلك ان نعمل، وان نراهن بالتالي- فلنراهن. ولكن ليكن رهاننا **بضربة واثقة**. والمثل الاعلى لمهندس المصادفات، هو تحديد رهان يُستبعد منه عنصر الخطر.

والقاعدة الاولى لمثل هذا الرهان المنتصر هي تحديد عدد الاحتمالات الممكنة اكثر من غيرها. والوصول ان امكن الى حل تبادلي يتضمن متناقضين، يؤدي نجاح احدهما الى اخفاق الآخر.

ولكن هل يمكن ان نصمم حلا تبادليا ذا احتمالين، يستطيع المراهن فيه الربح دوما، اي الربح في الحالتين؟

ـنعم، اذا كنا قادرين على تحمل الخسارة الآنية في الحاضر، وتمسكنا بالامل الاكيد بالربح في المستقبل.

هذا هو ما يفعله الاستراتيجي الذي يقوم بالانسحاب «بعلم وبراعة»، ويتنازل عن الارض، ويسمح للخصم باحتلالها. ان التراجع الاستراتيجي يضاعف فرص استنزاف الخصم باطالة خطوط امداده، وتأجيج مقاومة متزايدة تنمو بدافع اليأس، في حين يزيد الانسحاب المنتظم الذي يقوم به المدافع من قيمة حشده. وقد سارت عدة حروب قديمة وحديثة على هذا الايقاع: من نصر الى نصر حتى الهزيمة، أو من هزيمة الى اخرى حتى النصر.

وقد درس بيير فاندريس في كتابه الرائع جداً عن «الاحتمال في التاريخ»، ومن وجهة نظر القرارات الاحتمالية، حملة بونابرت على مصر في ظل حكومة المديرين، ومعركة أبو قير، وحملة مارينغو. ولن نبالغ في اطراء هذا الكتاب التحليلي اذا ما قلنا أنه ينبغي ان يعبر مع تحليلات كلاوزفيتز وجوميني، من اهم الكتب التقليدية للاستراتيجية السابقة للعصر الذري.

وعند قراءتي لفاندريس لم أستطع ان أمنع نفسي من البحث عن أوجه الشبه بين فن بونابرت وفن باسكال. ان الاستراتيجي الكامل هو الذي يتخذ تدابير **مضادة للمصادفات** وذلك عن طريق توزيع القوات ونشرها بذكاء، والافادة من الزمان والمكان، بحيث تكون احتمالات تحقيق النصر في نهاية المطاف كبيرة جدا، حتى لو حصل الخصم في البداية على نجاح موقت، او في حالة وقوع حوادث لا يمكن درؤها[1]. ومن الواضح ان حملة ١٨٠٠، وعبور مضيق سان ـ برنار[2]، وظهور بونابرت على مؤخرات ميلاس، كانت تعطيه هذا الحد الاقصى من احتمالات النجاح في حملة حاسمة زج فيها بمصيره ومصير

(١) راجع فاندريس، De la probalité en Histoire، ص ١٩٣.

(٢) مضيق سان برنار في جبال الالب بين سويسرا وايطاليا على ارتفاع ٢٤٧٣ مترا.

بلده. ولم يقتصر تفكير بونابرت على جبال الألب، والآبنين، ونهر البو، هذه المعطيات الجغرافية الثابتة، ولكنه فكر ايضا في حركات ميلاس، الذي كان يملك حرية الخيار بين عدة حلول ممكنة، كما ادخل في حساباته الحوادث غير المتوقعة، كخسارة مدفعيته في ١٩ مايو (ايار) ١٨٠٠ في وادي أوست امام حصن بار الصغير. وقد اتخذ القنصل الاول التدابير المضادة للمصادفات قبل المعركة بذكاء مطلق، وكان بوسعه الرهان دون التعرض للمخاطر اكثر مما يجب. ومن هنا جاء هدوءه الكبير الذي ادهش شهود الحملة، والذي كان نابعا من عقله اكثر من أن يكون نابعاً من طبعه او مزاجه.

ان معركة مارينغو، التي تذبذبت مدة طويلة، والتي بدأت بهزيمة واسعة، مثال عملي على ان الذكاء المضاد للمصادفات، والتدابير التي اتخذها بونابرت مسبقاً، استطاعت تحقيق الكثير في مواجهة الصدفة.

ان بالامكان تطبيق هذه المبادىء على دراسة المصائر. وافترض بأن الرجال العظام يملكون امكانية اختيار سلوكهم. فهم يكافحون ضد الصدفة، والاتفاق الظرفي، والاحتمال. وقد انعمت النظر بسلوك فنان المصير المشهور فيكتور هوغو بعد انقلاب ٢ ديسمبر (كانون الاول)، مميزا بين الرهان والمخاطرة، ومقتنعا بأن فن الرهان هو الغاء عنصر المخاطرة بالتحالف مع الزمن.

لقد اختار فيكتور هوغو المنفى واللعنة، قائلا: **أقبل المنفى القاسي، حتى لو لم يكن له اي حد او نهاية.** كان حسابه بطوليا ولكنه حساب اريب، شريطة المراهنة على ما بعُد الموت، وعلى المجد وليس على الشهرة.

فلو ان هوغو نجح (وقد نجح فعلا في العام ١٨٧٠) اذن لربح كل شيء، إذ أنه تذوق ما بعد الموت مسبقاً.

ولو استمر العهد الامبراطوري، لبقي هوغو في جزيرة غيرنيزي. ولم يكن ليخسر شيئاً من مجده. ولكانت جزيرة غيرنيزي بالنسبة الى هوغو مثل ما كانت فيرني [1] بالنسبة

(١) مكان اقامة فولتير.

الى فولتير واني لا أتحدث عن باتموس [1].

واقدم كمثل على الرهان «العودة الشهيرة من جزيرة البا». وهي احدى المغامرات البعيدة الاحتمال في التاريخ المعاصر. وتشكل هذه العودة نموذجا من الرهانات التي لا وجود لعنصر المخاطرة الشخصية فيها، والتي لم يتوقف بونابرت عن القيام بها خلال حياته. فلو انه خسر، فما الذي سيسخره؟ الموت؟ ولكن الموت لا يعتبر ابدا عنصرا من عناصر المخاطرة بالنسبة الى رجل الحرب الحقيقي،فالموت جزء من العقد الذي وقعه مع موهبته ومهنته. وعندما عاد نابليون من الجزيرة لم يكن يخاطر بالمجد الذي يضعه القائد العسكري او السياسي فوق كل شيء، فحتى في حالة الفشل، فان هذا الفشل سيضيف شيئا جديدا الى الاسطورة.

وهكذا فان كبار الاحتماليين يضعون انفسهم في موقع يجعلهم يربحون دوما، شريطة ان يقبلوا خسارة كل شيء «اعطاء كل شيء» كما يقول باسكال. والتنازل عن مزية حاضرة للحصول على مزية اكبر مستقبلا، هذه المزية التي يمكن ان تأتي بعد زوالهم. هنا يقع العمل «الميتافيزيقي» للرهان، الذي يتطلب ايمانا بزمن يقع وراء الزمن، هو زمن مجد ما بعد الموت- وبالنسبة للشهيد، زمن المجد الابدي. والواقع أن الشهيد مؤمن بانه لا يخسر الا جزءا من الحياة المؤقتة في لحظة سيئة.

وبوسعنا القول ان كل رهان (وكل استراتيجية بالتالي) تنطوي على فلسفة للزمان. ويثير الزمن في بعده المستقبلي (الذي نجهل طوله كما نجهل نوعه) بعض مواقف السلوك: انتظار، ادخار، مهلة، تأخير، أمل. ويتضمن الرهان الانساني في النهاية الاختيار بين الانتظار القصير والانتظار الطويل.

وهناك نوعان من المراهنين: اولهما المراهن الصديق للحاضر- الذي يقول لنفسه كما قال هانيبال والفاتحون الآخرون: «اني افضل المزايا المباشرة على الآمال البعيدة». اما النوع الثاني فهو المراهن الصابر الصديق للمستقبل او المؤمن بالخلود ،وهو يقول لنفسه: «اني افضل المزايا المستقبلية والحقيقية على الارباح الفورية». وكان نابليون يفكر على غرار

---

(١) احدى الجزر اليونانية في بحر ايجه التي أقام فيها القديس يوحنا وكتب Apocalypse

النموذج الاول، في حين كان رجل الدولة البريطاني اللورد ويليام بيت W. Pitt يفكر على غرار النموذج الثاني.

ان الاستراتيجية لم تعد تملك في ايامنا هذه أي زمن. ولكنها تملك المجال وتسود عليه. وسيغير هذا الوضع شروط الرهان. ويرجع ذلك إلى أن النتائج فورية وحاسمة. وليس بالامكان خسارة المعركة الاولى، كما ليس هناك اي خط للتراجع. اذن ليس هناك اي رهان منذ ان تبدأ الحرب.

وبعبارة اخرى، يجب الاختيار بين الحاضر الذي يتيح سلطة فورية على المجال في الحال، وبين المدى الطويل، المستقبل الذي هو غير مؤكد في جوهره، ولكنه يعطي نوعا آخر من السلطة. ان الغرور يفضل الحاضر، الآني، ولهذا فان الغرور باطل لا جدوى منه. في حين تفضل الكبرياء (او المهانة) المعاناة والانتظار. ويبرر التاريخ موقفهما.

ولا تملك الاستراتيجية النووية تأجيل اي موضوع للمستقبل. فهي ليست لعبة يمكن ان تستغرق امدا طويلا، كما تسنى للاستراتيجيين الانكليز والروس ان يفعلوا عندما واجهوا نابليون وانتصروا عليه. فحرب الازرار التي تتضمنها الاستراتيجية النووية قد لا تستمر اكثر من ربع ساعة.

لهذا فان الرهان النووي مختلف عن الرهان السابق. فهو لا يتشعشع على طول خط الزمن. وليس من الممكن تكراره من جديد واعادة البدء به، كما لا يمكن تصحيحه وتبديله كالرهان الاستراتيجي السابق الذي كان، رغم تدابير المناورة المعدة المضادة للصدفة، رهانا مستمرا، متغيرا، غير مؤكد. اما اليوم فان الرهان يتطلب المغامرة بكل شيء وبسرعة كبيرة، المغامرة بالكل في سبيل الكل. إن العمل شبه الفوري الذي يسمى الاختيار، والذي يجمد الصدفة ويتخلص منها، لم يكن له مثل هذه الاهمية في اي وقت مضى.

وتقع هذه اللحظة الصدفية الحاسمة قبل الحرب، في قرار الحرب. حتى انه يمكن القول بأنه لم يعد للحرب مسيرة عبر الزمن، ولم يعد هناك تبدلات او تاريخ. فاللحظة تحل مكان المدة.

وهكذا، فان الامر لم يعد يتعلق بخوض الحرب، بل ردع الخصم من محاربتنا. ان

اعطاء الطرف الآخر انطباعا بأنكم «ستكونون البادئين باطلاق النار» يكفي لتحقيق الاثر. وبالتالي فان التهديد المزيف، المسمى «بلفة» او مزايدة، اصبح مؤثرا بشكل لم يعرف من قبل.

والخلاصة، فان علم النفس والمعنويات لم يكن لها ابدا مثل هذا البعد، ولا مثل هذا الاثر على الجنس البشري.

لقد اصبح الرهان جوهر الحرب ومضمونها، واحتل الموقع الذي كان يحمل في الماضي اسم القتال. ولكن الرهان في حد ذاته قتال فوري، نفسي، يسبق الحرب. وهذا هو التبديل الكبير!

الاحتمال في الحروب السابقة للحرب النووية:

اود الآن القاء نظرة على الفترة الطويلة التي بدأت مع قابيل، وامتدت الى القاء القنبلة الذرية على هيروشيما. هذه المقدمة للحرب الثالثة المحتملة، بعد عشرين قرنا من ميلاد المسيح.

من الممكن التعبير عن كل الاستراتيجيات بتعابير احتمالية. وقد قالها نابليون بعمق ووضوح للسيدة دو ريموزا [١].

«يشتمل العلم العسكري على حساب كل الفرص في بادىء الامر بصورة جيدة، وحساب حصة الصدفة بالضبط بصورة شبه رياضية. وينبغي ان لا نخدع انفسنا حول هذه النقطة، فبوسع جزء عشري صغير، زيادة او نقصاً، ان يبدل كل شيء. غير ان هذا التقسيم بين العلم والصدفة لا يمكن ان يستقر الا في رأس رجل عبقري، لاننا نحتاج الى العبقرية في كل مكان نريد ان نبدع فيه. ان اكبر ابتكار للفكر البشري هو الابتكار الذي يعطي وجودا لما لا وجود له. وتبقى الصدفة اذن لغزا دائما بالنسبة الى المفكرين الضعفاء وحقيقة بالنسبة الى الرجال المتفوقين» [٢].

---

(١) الكونتيسه دوريموزا (١٧٨٠ - ١٨٢١) الفت كتابا عن ذكرياتها في قصر نابليون، حيث كانت تعمل كوصيفة شرف.

(٢) من نابليون الى السيدة دوريموزا - ذكرها ماكسيميليان فوكس في «محادثات نابليون بونابرت»، ص٢٣٧.

لنقدم ايضا بعض الامثلة. ان البعض ينصح ضمن اطار هذا المنظور باختيار «الاهداف المتناوبة». ويقول ليدل هارت عن صواب ان وجود هدف وحيد للعمل يعني تقليص احتمال تحقيقه، لان العدو لن يتردد في معرفة هذا الهدف ومنعنا من بلوغه، في حين ان التأثير يزداد عند اللجوء الى السلوك الخداعي، الذي ينمي لدى الخصم قناعة بوجود احتمالات عديدة، ويجعله يشتت جهوده لمواجهة كل هذه الاحتمالات.

ولهذا السبب ينبغي عدم تجديد هجوم قد اخفق (لاننا لن نحقق مباغتة الخصم بالهجوم الجديد)، وعدم مهاجمة نقطة من النقاط الا اذا كان من الممكن التوجه منها الى نقطة اخرى. وللسبب نفسه نقول ان الحواجز الطبيعية او المحصنة ضعيفة الفاعلية، وان علينا اختيار الخط الاقل توقعا من قبل العدو.

اننا نعرف كم يفضل المحللون العسكريون الامريكيون **التقرب غير المباشر**، ويُرجعون اليه تقريبا كل فن العمل. وليس هذا التقرب سوى حالة خاصة من الحيلة، فهو يسمح لنا بالحصول على مزايا يعتبرها الخصم ثانوية ولكنها تشله في المستقبل. ويقلل التقرب غير المباشر من **الصدفة** في جانبنا ويزيد من احتمالها لدى الجانب الآخر.

وأود ان اشير الى ملاحظتين ابداهما ليدل هارت، وهما تبرزان لديه احساسا بالطبائع الانسانية، نادرا ما يوجد لدى الاستراتيجيين.

يقول ليدل هارت ما يلي: اذا كان خصمك متمركزا على موقع محصن ولا يمكن طرده منه الا بثمن باهظ، ينبغي عليك ان تترك له مجالا واسعا للحصول على خط للتراجع، وستكون هذه الوسيلة اسرع الوسائل للقضاء على مقاومته[1]. «ويمكن ان يكون من مبادىء السياسة ايضا، خصوصا في زمن الحرب، ان تتيح لخصمك سلما يستطيع النزول عليه».

ويلاحظ ليدل هارت ان اخطر الناس هم في غالب الاحيان العاطفيون ونافدو الصبر. لان هؤلاء الناس لا يستطيعون تحمل الشك، ويدفعهم القلق الى اقصى درجات التطرف. وهذا ما يدفعني الى القول بأن الذئب اقل خطرا من الخروف الثائر.

وبهذا المعنى، يمكن الوصول الى استنتاج لا يخلو من الغرابة، وهو ان الفكر المتوسط

---

(١) المرجع المذكور سابقا ص ٤١٢ و٤١٤.

الصدفة قادران على الانقاذ اكثر من العبقرية. ان عدم وجود اية فكرة لدى القائد، واية حطة، واي تدبير مضاد للصدفة يجعل منه شخصاً لا يمكن توقع افعاله. وقد قال لي اندريه موروا: «كانت تدابير ويلنغتون في واترلو تدعو الى الرثاء. ويمكن القول ان ويلنغتون لم يتخذ اي تدبير. وهذا ما انقذه في النهاية». فعدم القيام باي عمل، والبقاء في موقف لترقب والانتظار، يعني مضاعفة المصادفات المشوشة، والقيام في النهاية باختيار الصدفة لافضل.

بعد كل هذه التمهيدات، يمكننا الآن البدء بمعالجة الغرض الاساسي من هذه الدراسة، وهو بحث الردع الذري. ولنتساءل كيف سيبدو فيه حساب الاحتمالات؟ وقبل الرد على هذا التساؤل لا بد من التأكيد على انه ليس بين **الحرب التي سبقت وجود الذرة والحرب الذرية فارق في درجة التعقيد، بل فارق في طبيعة الحرب وروحها**. ان كل امرىء يعي هذه المسالة بشكل غامض، ولكن المطلوب طرح المسألة بكل دقة ووضوح.

ظهور معطية لا متناهية في الرهان وفي الحرب:

لم أعرض حتى الآن المظهر الاعمق في مفاهيم باسكال عن الاحتمال.

لقد تحدثت عن القواعد التي وضعها باسكال لتحديد الاحتمالات في الالعاب. بيد ان باسكال كان يلجأ عند القيام باي اكتشاف، الى تطبيق اكتشافه في كل الاتجاهات والابعاد. وليس هناك من يجهل «مبرر الرهان» الذي استخدمه باسكال المؤمن لاقناع الملحد بوجود الله، مبرهنا له من وجهة نظر عملية ان من مصلحته ان يتصرف على اساس أن الله موجود[1].

وغالبا ما يرى بعض دارسي باسكال في رهانه شيئا من السفسطة. وقليلون هم الذين يؤيدون وجهة نظر هذا المفكر الذي كان فيلسوفا ورياضيا بآن معا.

ان ما نستخدمه في رهان مَا من الرهانات العادية للحياة، وفي الالعاب، كما في المواجهات السياسية أو الحربية، هو كمية محدودة. **كما ان ما نأمل بربحه محدود ايضا.**

(١) يعتمد الاقناع في هذه الحالة على محاكمة يمكن ايجازها بما يلي: على المرء ان يؤمن بوجود الله في جميع الحالات، فان كان الله موجودا ربح كل شيء، وان لم يكن الله موجودا لم يخسر المؤمن شيئا.

وتتلخص فكرة باسكال في ان مسائل الرهان تتبدل جذريا اذا استُخدمت في الرهان كمية لا متناهية. لانه حيثما يتدخل اللامتناهي، وحيث لا يوجد لا متناه في الخسارة مقابل لا متناه في الربح يصبح من المتعذر اجراء الموازنة. إذن لا بد من المراهنة. واذا كان هناك لا متناه في الربح أو الخسارة، وكمية محدودة فقط ينبغي المغامرة بها، فمن المنطقي عندئذ المغامرة بالكمية المحدودة (المتناهية) للوصول الى اللامتناهي. لان المحدود (المتناهي) يزول ويتلاشى في مقابل اللامتناهى [1]

ودون ان ندخل في تفاصيل هذه المحاكمة يمكننا القول بأن وجود اللامتناهي يلغي المخاطر.

واذا كان فن المراهن - كما قلت من قبل - هو الرهان دون مخاطرة، فلنقل بأن من السهل الحصول على هذه النتيجة الغريبة عندما يدخل اللامتناهي في اللعبة.

ولنعد الى فن الحرب والردع منذ ظهور القنبلة الهيدروجينية، التي تمثل هنا الكمية اللامتناهية.

منذ اختراع حجر القدح وحتى اختراع البارود، لم تكن الحروب تضع في الرهان سوى المحدود. ومع قبولنا ايضا بأنه كان بوسع احد الخصمين القضاء على الآخر وتدميره، والتعرض للضعف بسبب انتصاره، فان المنتصر لم يكن معرضا للابادة.

وينبغي منذ الآن مواجهة هذه الامكانية اللامعقولة، هذا الانتحار الطارىء أو الارادي. فاللامتناهي السلبي يدخل في الحساب. ولا يؤدي فقط الى ادانة وإبطال الوسيلة التي نخوض الحرب بها، بل يؤدي ايضا الى ادانة وإبطال الهدف الذي اندلعت

---

(١) راجع مقاطع الرهان المشهور لباسكال، المتعلقة بعدم تناسب المتناهي واللامتناهي في الرهان: «ستكون أخرق عندما تضطر الى اللعب ولا تخاطر بحياتك لكي تربح ثلاث حيوات، في لعبة تتماثل فيها فرصة الخسارة والربح (. . .) ولكن يوجد هنا لا متناه من الحياة السعيدة يمكن ربحه، ومصادفة ربح مقابل عدد محدود من صدف الخسارة، وان ما تلعبه هو محدود: هذا يوقف كل تردد. وحيثما يكون هناك لا متناه، ولا يكون هناك احتمالات لا متناهية للخسارة مقابل احتمالات الربح، ليس هناك ما يدعو الى الموازنة، بل ينبغي اعطاء كل شيء . . وهكذا فان اقتراحنا هو في قوة لا متناهية، عندما نغامر بالمحدود في لعبة تتساوى فيها مصادفات الربح والخسارة، ويمكن فيها ربح اللامتناهي. وهذا بيان مقنع، واذا كان الرجال جديرين ببعض الحقيقة، فهذه هي الحقيقة». جورج برونيه- رهان باسكال (منشورات Desclee de Brouwer، ١٩٥٦).

بسببه كل الحروب. فالتكلفة تفوق الربح، الامر الذي يجعل الحرب نموذجا ساطعا للحماقة والخطأ.

هذا هو على الاقل اتجاه التفكير العام. ولكن هناك فاصلة، قد تكون واسعة احيانا، بين التفكير والتطبيق العملي. وفي الواقع ليس الغاء الحرب بواسطة الردع امراً بمثل هذه السهولة، لانه يظهر بسرعة المفارقة التي تقدم الوجه الآخر للعملة وتشكل الشر وفدية التقدم. وتتمثل هذه المفارقة في انه لا يمكن حتى الآن إلغاء الحرب الذرية الا اذا أعددنا لها عدتها. ولا يمكن اعدادها الا اذا كنا نريدها. ويتطلب كل ردع فعال عزما ونية. ونحن في حلقة مفرغة غريبة، هي صورة لحالة التبلبل التي تعيشها البشرية.

ان دخول التهديد اللامتناهي في الحرب يحولها ويخلق المفارقة الذرية.

في هذا النموذج الجديد من الحرب، يتخذ الرهان حول نوايا الخصم أهمية حاسمة. ويمكن القول بأن كل شيء معلق بالرد على السؤال التالي: «هل يكذب الطرف الآخر؟». فالعمل الحربي يتكثف في زمن مختصر، ويتقرر في لحظة واحدة، وبما ان الحدث فوري ولا يمكن التراجع عنه، فإن الذي يبدأ يربح. ومن هنا تنجم المزية الهائلة من اقناع العدو بأننا سنبدأ. وينجم عن هذا ضرورة مطلقة بمعرفة ما اذا كان التهديد حقيقيا أو خداعيا. ومن المؤكد أن تاريخ البشرية لم يشهد أبداً وصول التمييز الفكري الى قوة أعلى من هذه القوة.

ولنوضح اكثر. اذا كان التهديد خدعة مكشوفة فقد تأثيره، ولكي يكون ردعا حقا ينبغي ان يتضمن احتمالا مؤكدا بالعمل. ويتطلب هذا ان لا يملك صاحب التهديد القوة الفعلية فحسب، بل ان يملك ايضا النية الحقيقية على تنفيذ تهديده. ولقد كان الفن السامي في مجال الحرب عبر العصور، يتمثل في تجنب الحرب مع الاكتفاء بالتهديد، لأن الرعب السابق للحرب كان كافياً. ولكن لكي يؤثر هذا الرعب دون اعطاء البرهان، ينبغي ان يبدو محتملا ومقبولا. ولكي يبدو محتملا ينبغي ان يكون محتملا بالفعل. هذه هي مفارقة كل رعب. ولهذا السبب يصبح الرعب مخيفا، وتقع الحروب أحياناً دون ان تكون هناك رغبة في اندلاعها.

ان الطفل الذي يهدد أبويه بالانتحار اذا لم يلب والداه كل رغباته يخفق ما دام الوالدان يعتبرانه مخادعا خاضعا لنزوة عابرة. وكذلك وضع السارق الذي يهدد بائع

المجوهرات بالسلاح، أو رئيس الدولة الذي يهدد باستخدام قواته، او الشعب الذي يهدد بالثورة. يجب ان يوقن الجميع بأن يوليوس قيصر قادر على «عبور الروبيكون» لكي لا يحتاج الى عبوره [١]. وبعبارة اخرى: لا يكون للتهديد أية قيمة الا اذا كانت له بداية تنفيذية. فالتهديد لا يمكن ان يكون تظاهرة خالصة. ولن يربح في التهديد الا من عوّد خصومه على تهديدات مزيفة، ودفعهم الى اهمالها وتجاهلها، وقام بغتة بتهديد تبعه مظهر من مظاهر التنفيذ. وهكذا فان اخطر التهديدات واكثرها أثراً، ليس تهديد القساة والخشنين، بل تهديد الهادئين المزيفين. ولا أحتاج هنا الى ايراد الامثلة: فهي، موجودة في الانجيل عندما يتحدث هذا الكتاب المقدس عن الذئاب المتنكرة.

ولكن هذه الآلية تنتقل الى اقصى قوتها في الحرب الذرية. فلكي لا تقع الحرب الذرية الشاملة ابدا، ينبغي ان يكون من الممكن ان تقع في كل لحظة.

ينبغي أن تكون مثل هذه الحرب «ممكنة الاستخدام» لا «مستخدمة»، كما يجب اللجوء إليها كقوة وليس كعمل. وهذا يتطلب فنا متفوقا، لان كل قوة تميل بالضرورة نحو العمل. وها هو الفكر ينتقل تحت قبة المتناقضات المتقاطعة فيما بينها. ان الافضل والأسوأ، ونعم ولا، لم يتشابكا الى هذا الحد في اي يوم من الايام. ان لذة الحياة تنبعث في كل لحظة فوق الامكانية الدائمة للتدمير. وهذا ما يدفع الى التفكير بالهيكل العظمي الذي يتأرجح فوق المدعوين في مآدب الوثنيين. فالجنة تتطلب وجود الجحيم في كل لحظة، ولكن الجحيم الذي نتجنبه في كل لحظة يعطي هذه اللحظة طعم الجنة. لقد كان ديموقليس يعيش تحت سيف معلّق بشعر ذيل حصان. ومن الممكن ان نفترض انـه كان يرفل في السعادة، لانه كان يحس بالنجاة في كل لحظة، تماما كما يحس الجندي في المعركة بسبب نجاته وعدم تعرضه للاصابة [٢].

---

(١) «عبور الروبيكون» تعبير يقصد به القيام بخيار محدد، والاقدام على عمل يحمل في طياته مخاطر كبيرة دون امكانية الرجوع عنه. ولقد جاء هذا التعبير بعد ان عبر يوليوس قيصر نهر روبيكون في شمالي ايطاليا في مطلع العام ٤٩ق.م. مع احد ليجيوناته، خارقا بذلك قانونا رومانيا يمنع اي قائد من قيادة جيش خارج المقاطعة التي اسندت اليه قيادتها. وكان هذا العبور بمثابة اعلان الحرب على مجلس الشيوخ الروماني، وبدء الحرب الاهلية الرومانية التي استمرت خلال (٤٩- ٤٤ق.م.).

(المعربان)

(٢) يقول الكاتب «لقد كان ديموقليس يعيش تحت سيف معلق بشعر ذيل حصان». والحقيقة أن تعبيره هذا غير دقيق،

وقد يقول احد الفلاسفة ان المفارقة التي تعيش فيها البشرية هي المفارقة التي تشكل الوجود. ويهمس صديق فاوست في اذن هذا القلِق قائلا: «انت تخشى ما لن يقع ابدا، وتبكي ما لم تخسره». وكان بوسع فاوست ان يرد عليه: «من يدري؟».

الخوف والشلل:

الخوف انفعال يثير في بعض الحالات ردود فعل دفاعية كالفرار، ويكبح في حالات اخرى جماح هذه الردود ويوقف الحركة ويؤدي الى الشلل. ان اجتياز العتبة، الارتكاس، هي سمة عدة انفعالات. هذا هو الوضع عندما يصبح الضحك قهقهة جنونية، والرغبة تشنجا، او تتحول الدموع الى نحيب، أو يتطور الغضب الى جنون، أو عندما يدمر الانسان نفسه لكي ينقذ نفسه. لذا فإن من المناسب ان نميز بإسمين مختلفين الخوف الطبيعي الذكي الذي يكيفّنا مع اسلوب الغريزة، والخوف الارتكاسي الضار. فالخوف الاول يجعلني أتجنب السيارة المارة عندما أعبر الشارع، اما الخوف الثاني فيدفع بي الى الاصطدام بأحد الحواجز. ويعرف الخطيب الفرق بين القلق الغامض الملائم الذي يدفعه إلى استنفار كل قواه، والثغرة المباغتة التي تجعله يفقد الذاكرة، فيصاب بالعجز التام عن الكلام. ولهذا يضاف الى الخوف البسيط الطبيعي خوف آخر، هو الخوف من الشلل الذي يسببه الخوف، والذي هو خوف من الخوف. وأسوأ الاحداث بالنسبة الى قطعة عسكرية ليس الذعر (الذي ينقذ في النهاية ارواحا بشرية)، بل الشلل الذي يقدمها حية للخصم.

لأن «ديموقليس» لم يعش تحت هذا السيف بمحض إرادته، ولم يبق في هذا الوضع سوى فترة محدودة جداً لا تتجاوز عدة ساعات. ومن الصعب أن نتصور أنه كان يرفل في السعادة خلال هذه الفترة. وتقول الاسطورة أن «ديموقليس» كان مقربا من «دينيس» طاغية سيراكوزا في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد. وكان يكرر امام الطاغية باستمرار الحديث عن سعادة الحكام. ولقد اراد «دينيس» ان يرد عليه بشكل عملي ليؤكد له عدم صحة مقولته، فسلمه منصبه خلال يوم واحد. ولقد أحس «ديموقليس» بسعادة كبيرة. ولكنه شعر خلال المأدبة التي اقيمت بهذه المناسبة ان هناك سيفا ثقيلا معلقا فوق رأسه بشعر ذيل حصان، وكان «دينيس» قد علق هذا السيف ليكشف لديموقليس بشكل محسوس مدى القلق الذي يحس به الحاكم ويحرمه من التمتع بالسعادة.

انطلاقاً من هذه الاسطورة ظهر تعبير «سيف ديموقليس»، وانتشر استخدامه للدلالة على الخطر الدائم المسلط على شخص أو أمة (المعربان)

ان هذه التمييزات تسمح برؤية مزية السلاح المطلق. ففي حين تستهدف الاسلحة النسبية احداث الخوف، فان السلاح المطلق يستهدف احداث الشلل التام. ودون ان تكون هناك حاجة لاستعمال هذا السلاح، ولمجرد الفكرة التي يكونها الخصم عنه، فان هذا السلاح يتجاوز تأثيرات الفرار والخوف والهجوم المضاد، ويؤمن دفعة واحدة الحصول على الاثر الشامل والتام، الاثر المطلق: الشلل. وهو اثر اكبر بكثير من الموت. ان المحارب لم يهتم بموت الخصم في أي يوم من الايام الغابرة. انه يقتل لانه لا يستطيع القيام بعمل آخر. ولم يكن الهدف الحقيقي للمحارب في الماضي «ابادة الخصم»، بل تحويله الى العدم، واستعباده. فالعدو الميت (كما يقول ليدل هارت) هو «ميت لا اكثر ولا اقل»، في حين ان الخصم المشلول هو عنصر دعائي قادر على مضاعفة الانطباع بالهزيمة. وانتم تتذكرون بعض الحشرات غشائيات الاجنحة التي تحرص جيدا على عدم قتل فرائسها، حتى تغذي يرقاتها بلحم حي.

ان مجرد الشك بان الخصم يملك سلاحا مطلقا لا يؤدي فقط الى شل الجيش، بل يستطيع ايضا شل زعماء شعب بكامله، وتحويلهم الى عاجزين، والسماح بالتالي بانهاء الحرب فورا. ولهذا فان الذي يحتكر مثل هذا السلاح، او الذي يصمم وحده على استخدامه مهما كان الثمن، يصبح وحده سيد اللعبة. ان من الممكن ان تصبح النزاعات المقبلة نفسية، وان يُنظر اليها وفق مفاهيم الشلل وليس وفق مفاهيم الخوف.

وما قيل هنا عن السلاح المطلق الذري يمكن ان يطبق على كل الاسلحة التي تحاكي فاعليتها فاعلية السلاح المطلق [١].

استنتاج من بعض مظاهر الردع:

اريد الآن معالجة بعض آثار هذا العامل المطلق، ونتائج دخوله العمليات التي يطلق عليها اسم حرب.

ليست هذه الآثار كلها سيئة، بل انها تفتح على العكس آمالا اكبر. فكلما ظهر

---

(١) المقصود هنا الاسلحة الجرثومية، والكيميائية، والجيوفيزيائية، وما يمكن أن يبتكره الانسان في المستقبل من اسلحة للتدمير الشامل.

اللامتناهي هبطت المناطق الوسيطة، ونجد انفسنا في مواجهة الخيار الجذري بين **الصفر واللامتناهي**، بين **العدم والكل**. إن بوسع آثار السلاح الذري أن تبدل الحسن وتحوله الى ممتاز، كما تبدل السيء وتحوله إلى شيء رهيب. لذا فإن الاختيار لم يعد يتم بين الحسن والسيء، بل بين **الأفضل والاسوأ**. ان الخطر مطلق ولكن الامل مطلق ايضا. هذا هو هدف رهان البشرية في نهاية القرن العشرين.

ان الامل معقود على الغاء ظاهرة الحرب. وعندها ستحل محل هذه اللعبة الدموية لعبة ادق، لعبة فكرية تتضمن اقناع الطرف الآخر بعدم القيام بمهاجمتنا. وهذا ما عرضه غالبا الجنرال أندريه بوفر في مؤلفات تتجاوب مع أمنية ديكارت: «القيام باحصاءات كاملة جدا، ومراجعات عامة جدا، بشكل أضمن فيه عدم اهمال أي شيء. ويسمي الجنرال بوفر هذه اللعبة الكبرى «استراتيجية الردع». ولو ان بعضهم اعترض على ذلك بان الردع قديم قدم الحرب والتهديد والخوف، لردّ بوفر على ذلك بأن الردع النووي يختلف عن الردع القديم الذي سبق العصر النووي اختلافا في النوعية لا في الشدة. لقد كان هدف الردع قبل اكتشاف الذرة اجبار الطرف الآخر على الخضوع لشروطنا، اما بعد الذرة فقد اصبح الامر شيئا آخر: ان الهدف هو منع الطرف الآخر من مهاجمتنا.

والخلاصة، فان الردع الذي يؤثر قبل الحرب، ويعمل لكي يجعل هذه الحرب دون جدوى، والنابع عن حساب يستهدف اثارة الخوف، هو نوع نفسي من انواع الحرب. وهو المظهر السلبي لهذه الاستراتيجية النفسية التي تشكل الدعاية مظهرها الايجابي. فاذا تمكنا من اقناع الخصم دون ان نتعب في الانتصار عليه، تغدو الحرب مجرد لعبة شطرنج كبيرة، ومواجهة صامتة بين عدة حاسبين.

ويمتاز السلاح المطلق بانه يبرز عدم التناسب بين الوسيلة والغاية. وليس هناك أي هدف حربي يمكن تحقيقه، ولا امل بالنصر أو بالغزو، عندما تستعمل الوسيلة اللامتناهية التي تدمر كل هدف.

لقد كان للحكمة القائلة بأن الغاية تبرر الوسيلة معنى عملي الى ان ظهرت القنبلة الذرية، مع ان الحكمة ذاتها غير اخلاقية. ومنذ ظهور السلاح المطلق، دخلت الاخلاق

(التي كانت في الماضي تقنية المثل الاعلى) في جوهر التاريخ، وتأكدت قواعدها بالقصاص الفوري.

وبسبب هذا السلاح ظهر الخوف من المبالغة والتطرف، وغدا من المألوف في الأزمات الدولية التراجع في اللحظة الاخيرة قبل التشنج او الوصول الى الذروة. وبذلك اصبحت ارادة القتال «حتى النهاية» كما في الحرب العالمية الاولى، وارادة فرض «الاستسلام دون قيد أو شرط» كما في الحرب العالمية الثانية أمورا خرقاء. ومن الممكن ان تحصل البشرية دوما، في ظل السيوف المتشابكة، على ايقاف النزاع قبل الساعة التي لا نكوص عنها.

واذا كان صحيحا ان القتال ينشب في عملية الردع قبل الاشتباك، فمن الممكن ان تكون الحروب في المستقبل مشابهة لحروب ما قبل التجنيد الاجباري والجيوش الوطنية، وأن نعود الى فن تجنب المواجهة، وان تصبح الاستراتيجية «مضادة للمعركة» كما كان الحال في القرن الذي عاش فيه غيبير Guibert.

في الاستقرار:

ان الحفاظ على البقاء هو النتيجة السعيدة لهذه المواجهة المؤلفة من تهديدات لا متناهية.

ولقد لوحظ في كثير من الاحيان ان الحروب قد نُزع فتيلها في الفترة التي تلت هيروشيما. وضاق نطاق الحرب الكونية التي كان من الممكن أن تندلع من جديد، واقتصرت على الحروب المحدودة التي كانت كالتمارين والذكريات.

ويبدو من المستحيل ان تستطيع مباغتة ناجمة عن حادث أوطارىء اضرام لهيب الحرب كما حدث في إيمس أو سيراجيفو[1]. ان الاوضاع القائمة تتدعم، كما يقاوم الجميع في

---

(١) ايمس بلد في المانيا الغربية على مقربة من كوبلانس. وفي ايمس تم تحرير برقية موجهة الى بسمارك حول ترشيح اسرة الهوهنزولرن لعرش اسبانيا، فاختصرها بسمارك واقتطع منها بعض اجزائها وابلغها للصحف، وكانت سببا في اندلاع الحرب الفرنسية- البروسية بتاريخ ١٨٧٠/٧/١٣. اما في سيراجيفو (سيراييفو)، عاصمة البوسنة والهرسك (يوغسلافيا)، فقد كان اغتيال ارشيدوق النمسا فرانسوا فيرديناند بتاريخ ١٩١٤/٦/٢٨ شرارة اندلاع الحرب العالمية الاولى. (المعربان)

هذا العصر كل تبديل. ولو لم يكن هناك طرف ثالث (صيني) مجهول، لاستمر توطيد التوازن المسمى «التعايش». فالاسوأ هنا يُنتج الحسن، لان كل طرف من الاطراف - في نظام اللامتناهيين - يخشى التصعيد الذي قد يبلغ الذروة. ويدعو هذا الخوف الى تفضيل الوضع القائم على كل امل بتحسينه. إنها عودة الى قاعدة قديمة يفرضها التعقل تقول بأنه عندما يكون الاسوأ امرا محتملا، واذا كنت غير مضطر الى العمل، فان الامتناع عن العمل حكمة. فمن الافضل للمرء ان يعيش مع ورم في جسمه من ان يغامر بجراحة قد تفقده حياته. ان خطر الموت هنا يمثل الكمية اللامتناهية

ويؤخر هذا الحذر الريفي أو البورجوازي التقدم في كثير من الظروف. ففي مجال المتناهي الوحيد يأمر الحذر عادة بالجرأة والمبادأة. يجب تفضيل التبديل والاصلاح على الجمود. ولكن الوضع مغاير لذلك في نظام اللامتناهي.

لهذا السبب ينبغي، منذ الآن واكثر من أي وقت مضى، ان لا ندفع الخصم الى اليأس بإذلاله، لانه اذا ما اعتقد هذا الخصم بأنه مُسّ في حياته أو شرفه القومي، فانه قد يخاطر بتطبيق منطق الكل أو لاشيء، ومنطق اللامتناهي. واذا كان لا بد من الموت، فانه يفضل جر الآخرين معه إلى الدمار.

ولكن لكل مزية من المزايا وجه السيء. ويجب ان نلاحظ بأن المغالاة في الاستقرار (ككل خمود، وكل انضباط ذاتي، وكل توازن، وكل موت) تحتوي على تهديد ما، لان الاوضاع الهادئة اكثر مما يجب، تخفي المفاجآت وتخدّر الحذر. وينذرنا التاريخ بأن الامن المطلق مخادع في حد ذاته. والصحة حالة وقتية، ولا يعقبها دائمًا شيء حسن.

ان الحالة المثالية الممكنة حتى الآن، تتمثل في هذا الاستقرار المزعزع نسبياً، هذا السلم المعرض لبعض الاخطار، هذه المسيرة التي تتخللها التهديدات وطلقات الانذار، هذا القلق السعيد إلى حد ما. فلتستمر هذه الحالة كما تستمر الحياة البشرية الحسّاسة الهشة التي تمتد من وضع مؤقت إلى وضع مؤقت آخر.

تعادل الكبار والصغار:

ان لهذه الحرب ذات الهدف اللامتناهي نتيجة تتمثل في تقريب الاضداد وتعادلهم،

وتقليص الانفراج الزاوي بين الدول الكبرى والدول الصغرى.

والحقيقة أنه عندما يتدخل عامل لا متناه، ويستطيع الاصغر ان يملكه، فان الاصغر يجد نفسه مساويا للاكبر. وللتدليل على هذا لنضع جيشا مؤلفا من مليون مقاتل في مواجهة جيش يضم مائة محارب. ولنزود كلا الجيشين بوسيلة لا متناهية، بسلاح مطلق حقا، وقادر على تدمير الطرف الآخر، فان الجيشين يصبحان متعادلين.

والوجه السيء للمسألة، هو ان كل دولة مهما كانت صغيرة، ستجد نفسها منذ الآن واقعة تحت اغراء استخدام السلاح المطلق في لحظة غضب أو يأس، وتعريض السلم العالمي كله للخطر.

اولويـة السياسـة:

ولكن اذا كان الخوف من اللامتناهي عاملا من عوامل الاستقرار، فان السياسة ستتحكم بالاستراتيجية اكثر من أي وقت مضى.

لقد تركز خيال المسؤولين بصورة خاصة على مجال الاسلحة واستخدامها. وكان كبار السياسيين، بدءاً من الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، استراتيجيين قبل كل شيء، ونقلوا اساليبهم الى «الدولة- المدينة».

ولا يزال هذا الواقع قائما في عدة دول. ويبدو ان الشعوب المعرضة للاخطار تتوجه ايضا الى رجل الحرب لادارة الدولة وحكمها. ولقد كان هتلر استثناء غريبا، اذ انه كان سياسيا من نوع جديد، وفنانا في تحريك الجماهير، واستراتيجيا طارئا. وربما كان هذا هو سبب ضياعه. وكان ستالين وتشرشل ايضا سياسيين اكثر منهما جنديين، رغم ألقابهما الحربية وبزاتهما العسكرية. واني أسمي الجندي ذلك الرجل الذي يمارس خياله على المجال وتوزيع القوات والزمن والتركيبات، في حين ينصب خيال السياسي على الرجال ووعيهم ورغباتهم ومخاوفهم. ان الجندي يعيش في وسط مكاني- زماني، اما السياسي فيعيش في وسط فكري- نفسي.

ومن ناحية اخرى، فان السياسة لم تستطع في اي يوم من الايام القيام بدورها في حرية كاملة وحذق وكمال. لان «الدول- المدن» كانت متعددة. وغالبا ما كانت هذه

«الدول- المدن» يعارض بعضها البعض الآخر. واشتمل جزء كبير من جهدها السياسي على حماية «الدولة- المدينة» من الغزو، أو القيام بالغزو. وهكذا كانت السياسة تجاور الحرب. وكان رجل السياسة، مثل بيريكليس أو يوليوس قيصر، استراتيجيا قبل أي شيء آخر.

ان السياسة الحقيقية، المصممة بكاملها، هي فن العمل على توحيد الدول في دولة واحدة. وكذلك على المستوى الروحي، فان السياسة الرفيعة هي فن توحيد المسيحيين في كنيسة واحدة. ويجسد هذا الجهد على المستوى الروحي شكل الجهد السياسي العالمي المستقبلي الذي يمكن اعتباره سياسيا حقا، والذي لم نعرف حتى الآن الا خطوطه الاولى وبوادره ومقدماته.

لم تكن سياسة السلم حتى يومنا هذا سوى سياسة توازن وخداع بين الامم، أي بين المجتمعات المغلقة على نفسها، والتي يحاول كل منها غزو الآخر وتجنب غزواته. وكان وزراء الخارجية والدبلوماسيون الذين يساعدونهم ممثلين متعادين، يعملون من أجل عظمة أممهم. ونظرا لانشغالهم بالتحالف والعمل بعضهم ضد البعض الاخر، فانهم لم يستطيعوا ابدا اقامة نظام عالمي الا في بعض النقاط المحدودة جدا.

لقد كان المقصود تحقيق التوازن بين الامم وليس اقامة دولة عالمية، دولة مجموعة الامم. وكان هناك سياسات متعارضة ومعسكرات متنافسة. ولم يكن هناك ابدا سياسة بالمعنى الكامل والمعنى النبيل. وفي الحالات التي وُجدت فيها البشرية موحدة تحت لواء احدى الامبراطوريات، كان الخير المشترك المؤقت هو خير هذه الامبراطورية المهددة دوما من الخارج أو بنقاط ضعفها الداخلية.

ولكن اذا امكن شل الحروب، يمكن ان نتصور عندئذ دولة يتطابق فيها خير المجموع مع خير الفرد.

وحيثما يظهر لا متناهي العدم كتهديد، يظهر بوضوح ان شقاء الفرد هو شقاء الكل، وان جريمة فرد واحد ستلحق الاذى بنا جميعا. وما لا يبدو واضحا تماما، عندما يكون المقصود خيرا محدودا، يصبح واضحا في اللحظة التي نجد انفسنا فيها امام شر لا متناه.

ويتطلب تقدم البشرية حاليا التوصل الى وضع ينجينا من الخيار الصعب بين «المستحيل- الضروري» و«الضروري- المستحيل». بيد انه بفضل الذرة قد يبدو الضروري ممكنا، بل وضروريا، لمنع تعرض البشرية للموت المتبادل الشامل.

ان التاريخ المعاصر يعلمنا بأن كل ادانة للحرب، حتى لو كانت مخلصة، تبقى عديمة الفاعلية، لانه حتى بعد وضع الحرب خارج القانون الدولي العام، فانها لم تكن ابدا في الواقع خارج اطار مصلحة هذه الدولة أو تلك. ولكن اللجوء الى السلاح مع ظهور الذرة الى الوجود لا يبدو عملا خارج اطار العقل فحسب، بل انه يبدو ايضا خارج اطار المصلحة الحيوية لاحد الطرفين، مهما كان هذا الطرف قويا ومراوغا، الامر الذي يفرض امكان حل كل النزاعات المستقبلية، بعد تهديدات أو بعد بعض اعمال العصابات، عن طريق اللجوء الى المفاوضات.

وحتى لو كانت هذه المفاوضات طويلة الامد، ولا متناهية، فان هذا الامر قد يغير طبيعة العلاقات الدولية تغييرا عميقا. ومما لا شك فيه ان من الواجب ان نعيش في حوار لا نهاية له، داخل نظام السلم المسلح من الرأس حتى اخمص القدمين، ووسط التهديد المتبادل. بيد ان بوسع هذا الحوار- بسبب الظل الذي يحدثه **الخوف اللامتناهي**- ان يستمر طويلا، وربما يبقى متواصلا دوما. وهذا الحوار افضل من نظام الحروب الذي مزق قرنين من الزمان. هذا ما يمكن ان نواجهه اذا فكرنا بالنتائج السعيدة للاسوأ.

بيد أنني سأضطر مع الاسف لالقاء الظلال على هذه النتائج، تحت تأثير أسباب ميتافيزيقية تتعلق بطبيعة الإنسان (١)

---

(١) كتب الجنرال بوفر وهو على صواب فيما كتب: «ان السلاح النووي ووسائل التدمير الشامل الاخرى تعطي الانسان قوة مفرطة في فاعليتها، ستفرض عليه تحديد قدرته على تلبية غرائزه الدموية القديمة. ان هذه الطاقة الضخمة الرهيبة لن توجه مبادرات الانسان فحسب، ولكنها ستؤدي أيضا الى بعث وعي جديد سيسمح بدون شك بتنظيم قوة نووية جماعية، تكون بمثابة ذراع عصري لسلطة عالمية حقيقية.

«وقد يبدو هذا الاحتمال طوباويا بعيد الوقوع. ولا ينبغي أن نرسم له صورة شعرية، لان نزاعات المصالح والقوميات والعقائد لن تنقطع لهذا السبب. ونحن نعرف ان الحروب الاهلية اخطر من الحروب الخارجية، ولكن هذا هو الهدف النهائي للتطور الذي دخلنا فيه باكتشاف الانشطار النووي».

راجع كتاب «الردع والاستراتيجية»، الجنرال اندريه بوفر، ترجمة اكرم ديري، منشورات دار الطليعة- بيروت، ص ١٢٦ و١٢٧.

وهناك ايضا مظهر أريد ان ألفت الانتباه اليه. وهو ان السلاح المطلق يبدل علاقة الجيوش (التقليدية) والعصابات. ونظرا لانه يقلل من قيمة حرب الجيوش، فإنه يقرب ويركّب الشكلين الحدّيين للمواجهة، وهما الحرب النووية والحرب الثورية.

تبدل علاقة «الحرب» و«حرب العصابات» بظهور الذرة:

لقد قمت بالمحاكمة حتى الآن كما لو أنَ الحرب الذرية بطابعها المطلق ستخفض من قيمة أشكال الحرب المعروفة حتى يومنا هذا وتؤدي إلى الغائها.

والحقيقة أن الشكل الجديد للحرب لا يلغي الأشكال الأخرى، بل يعطيها معنى جديداً. وبالاضافة إلى ذلك، فإن هذا الشكل يعزز ويقوي أشكال الحرب التي كنا نعتقد أنها أُلغيت فالذرة تبعث الرمح والهراوة، وتعطي نوعاً جديداً من الفائدة لحرب العصابات. وبوسعنا أن نتساءل عما إذا كان محاربو الغد سيكونون علماء ورجال عصابات في الوقت ذاته، لأن النموذج الوسطي (الجندي) الذي حصل في الماضي على أهمية كبرى، قد أضحى الآن ثانوياً. وهناك ظاهرة تتمثل في تراجع التعابير الوسطيّة لصالح تعابير متطرفة تتجاذب وتتكامل، وتخفض في الوقت نفسه من قيمة التعابير الوسطيّة.

وبوسعنا القول بأن هناك منطقيا ثلاثة نماذج من الحرب: الحرب الكبرى، والمتوسطة، والصغيرة. وتستحق حرب «الجيوش»، التي هي الحرب المتوسطة، اسم الحرب «التقليدية» الذى اصبح متداولا. ويعود ذلك الى انها لم تتنازل تماما عن مفهوم المحاكمة، و«الحكم الالهي» بين هؤلاء المندوبين (الجنود) الذين يمثل كل طرف منهم دولة من الدول، ويحترمون القوانين الوضعية المقبولة من كلا الطرفين، كاعلان الحرب، واحترام المعاهدات، ومعاملة الاسرى... الا ان الفكرة التي تتضمن الاعتراف ببعض القوانين في الحرب ربما تظهر مضحكة بالنسبة الى هذه الوحوش الواعية، التي لا ترى حربا غير الصراع بلا هوادة. الأمر الذي يجعل الحرب التقليدية غير مفهومة للمثاليين. فاذا ما توصلنا يوما الى الغاء الحروب، فان الانقياء سيندهشون عندئذ من اننا حاولنا في الماضي حل المسائل بالنار وتجاهل اعتراض الضمائر، وتمسكنا بالحروب المقدسة.

ولندرس فلسفيا العلاقات القائمة بين هذه النماذج الثلاثة من الحرب.

عندما يكون هناك طرفان موجودان لوحدهما، ثم يظهر طرف ثالث، فان العلاقة بين الطرفين الاولين تتعدل. وبما ان المواجهة في معسكرين هي العلاقة الوحيدة الممكنة بين الطرفين، فان على الطرف الثالث ان ينضم الى احدى القوتين الموجودتين، أو أن يتذبذب بين الاولى والثانية. ولكن عندما يملك الطرف الثالث قيمة لا متناهية، فإن التبديل الذي يطرأ من جراء وجوده لا يمكن ان يقتصر على زيادة متناهية (محدودة) في قوة احد الطرفين المتنازعين. واذا كانت الحرب الكبرى تتحدد كحرب ذرية شاملة، فأن تدخلها يعدل علاقة الحرب «التقليدية» مع «الحرب الصغيرة» (حرب العصابات).

لقد كانت «الحرب الصغيرة» موجودة دوما. وكانت تعود دوما للظهور عندما تنتقل قوة مسلحة الى بلد اجنبي فتحتله، وتوقظ «المقاومة» في جزء غالبا ما يكون كبيرا من السكان. ولكن هذه «الحرب الصغيرة» لم تكن حتى يومنا هذا حاسمة بذاتها، بل كان بامكانها الاعداد للحسم. فلقد ساعدت المقاومة الاسبانية ويلنغتون، ولكن الحسم لم يتحقق الا في معركة واترلو. وكذلك الامر في العام ١٩٤٤، فقد كان نجاح الجيوش ضروريا للقضاء على المانيا. لقد استطاع الانصار والوطنيون ابان الحرب العالمية الثانية اعداد الانتفاضة والبدء بالمعركة، وقاموا باعاقة القوات المحتلة وازعاجها، ولكن الحرب لم تنته الا بمعارك مماثلة لكل معارك التاريخ- فيما عدا الحرب بين امريكا واليابان التي انهاها ظهور السلاح المطلق.

ان هذا السلاح المخيف سيغير منذ الآن طبيعة كل حرب. انه سيخفض من قيمة الحرب المتوسطة، ويرفع بالضرورة من قيمة الحرب الصغيرة. ويمكن القول بأن حرب العصابات لم يتم التأمل فيها وتقنينها حتى الآن. واذا ما تجرينا حروب الڤانديين والحروب الاسبانية في فترة الثورة الفرنسية أو في عهد الامبراطورية النابليونية، وعمليات الانصار المعاصرة، وجدنا بأن هذه «الحروب الصغيرة» قد احتفظت بالطابع العفوي وغير المنسق الذي تتسم به حروب العصابات. وكان المحاربون ينظرون اليها كحوادث عارضة، وكأعمال «ارهابية» خارجة على القواعد والقوانين. فاذا ما ربح رجال العصابات، اعتبرت القوات النظامية ان ربحهم قد تم بفضل الحيلة والحماسة. ولكن هذه الحوادث لم تؤثر على فن الحرب، الذي كانت الاستراتيجية التقليدية تميزه عن فن الثورات، هذا الفن

الذي كان بلا عقيدة، وقام على السرّية ردحا طويلا من الزمن. وكان المحاربون يميّزون أنفسهم دوما عن المتآمرين، فاذا تآمر المحارب فانه يتآمر في ظرف محجل، ثم يسدل ستار النسيان على هذه اللحظة، كما يسدل المرء ستار النسيان على لحظات الغضب. أما فن الانقلاب العسكري. فكان يدخل في اطار السياسة، ويعود الى اجزائها الغامضة.

بيد أن الامر يختلف تماما عندما يجري تنظيم حرب العصابات والحرب التقليدية والتفكير فيهما معا.

وقد كانت تلك هي الفكرة الملهمة لجنود العام الثاني للثورة الفرنسية، ومقاتلي الكومونة، وتلامذة ماو. ان الشعب يبدأ بحرب تقع ضمن حدود امكاناته، وهي حرب دون اسلحة تقريبا. ثم يستولي على اسلحة خصومه شيئا فشيئا، وبالاقناع، وتبدأ حينئذ مرحلة من الطراز «التقليدي». وهكذا فان «الحرب الصغيرة» لم تقم الا بتغذية وتقوية «الحرب المتوسطة»، حرب الجيوش. وفي هذه الحالة، لم يكن التعبير الثالث قد ظهر بعد، فلنعتمد هذا التعبير الثالث، ولنعتمد اللامتناهي.

حينئذ ستأخذ «الحرب الصغيرة» بعدا ذريا، أي خلفية مطلقة. وحينئذ، ومع انخفاض قيمة الوحدات العضوية التي تسمى «جيوشا»، وانخفاض قيمة طريقتها المسماة «معركة»، فان الحدين الاقصى والادنى سيقودان اللعبة.

وهذا هو ما نراه حاليا، حيث تقوم خلفية من التهديد الشامل بكبح القوى المتجابهة، وتجعل الضعيف ينتصر على القوي، والمقاتل الاعزل تقريبا يتفوق على المقاتل المدجج بالسلاح.

ذلك هو مبدأ الحرب الجديدة التي نسميها «ثورية»، لانها تقلب عاداتنا ومفاهيمنا رأسا على عقب. لكنها ليست سوى اشكال جديدة للحرب بين بني البشر. فهل ستبدو الحروب من الطراز الوطني والمسلح وكأنها حالات خاصة ينبغي وضعها بين قوسين؟

حول نسبية السلاح المطلق: قياس في اللاقياس:

لقد سبقت أفكاري حتى الآن مفترضا ان السلاح المطلق هو مطلق فعلا، أي أنه قادر على ابادة الحياة على كوكبنا الارضي.

ان السلاح الحراري- النووي ليست له حتى الآن هذه القدرة الكلية. ولا شك في انه لن تكون له ابدا هذه القدرة. وعلى كل حال، فإنه لن يستطيع، حتى في اسوأ الاحوال، تدمير الجنس البشري. ولا يتردد الاستراتيجيون المعاصرون في ان يحسبوا بهدوء هذه المجازفات والآمال. ولقد كتب أحدهم هذه الملاحظة القاسية ولكن غير اليائسة: «ألن يستطيع الباقون على قيد الحياة، إثر تبادل الضربات الذرية، التكيف مع حالات التفريغ السكاني؟». وبالاجمال فسيكون هناك ما يسمى المتبقي «المتبقي الصغير». ان الحضارات والتجددات تبدأ بفضل المتبقي الصغير. وحين تكون البشرية مرهقة بالعادات والحماقات، يكون من المغري وجود امكانية احراق كل شيء، والانطلاق من جديد عند الفجر.

ومن جهة اخرى، فان تقدم السلاح النووي يتحقق في اتجاهين: اولهما هو اتجاه ذروة الحدة، واللاقياس، والتكاثر. أما الثاني فيتمثل (بفضل التفكير السياسي والاستراتيجي) في اتجاه التحدبد والمرونة، والكمية الصغيرة، أي باتجاه القياس. ويمكن القول ان فنا جديدا يدشن اليوم، ويقوم على استحداث القياس في اللاقياس.

وتكفي الاشارة هنا الى جهود الاستراتيجيين في سبيل حرب نووية «تحت المحدودة»، ومنظومات الاسلحة النووية التكتيكية، والاستراتيجيات المتقطعة المتناوبة، وطرائق التصعيد التدريجي. وكلها اجراءات تشير الى علم جديد وليد هو الاقتصاد النووي. وهي تطمئن الاذهان والامم. لقد تم ترويض الوحش الضاري، وسيكون حال النار الذرية كحال النار، التي كان بوسعها تدمير كل شي، ثم جرى تدجينها مع الزمن.

لكننا نجد ظهور تناقض جديد في هذا الميدان النبوئي، الرؤيوي القيامي، حيث تولد المفارقات من المفارقات بتشابك اللامتناهي مع المتناهي.

وقد يعتقد الكثيرون بأن اللاقياس يولد الحرب وان القياس يتيح خفض احتمال اندلاع الحروب، ويؤدي الى السلم. ولكن الامر قد يكون على عكس ذلك. ذلك لان التطرف وذروة الحدة يثيران خوفا مطلقا، وينزعان بالتالي الى الغاء بعضهما بعضا. ان حربا مطلقة حقا لا يمكن تصورها، فما من احد يستطيع ان يريدها، ولا أن يعدها.

والامر بخلاف ذلك تماما بالنسبة الى الحرب النسبية، حيث يتخذ الردع اشكالا تدريجية، معتدلة، موزعة بتعقل وبشكل تدريجي بين الصفر واللانهاية. مما يجعل خطر المنازعات، بعكس توقعاتنا، مؤهل للتنامي عندما يتم تلطيف الذرة، والانتقال من ذروة الحدة الى التشنج، ومن التشنج الى القمع.

حـول الخطـر:

لقد حاولت في هذا البحث أن أبين ان السلاح المطلق يجعل الوضع البشري الكوني شبيها بوضع الشخص البشري. ان الكائن لا يعي انه يموت، وربما كان من المستحيل على المرء ان يرى نفسه وان يحس بنفسه آخذا في الموت، وذلك لان عليه في هذه الحال ان يكون على منحدري المرتفع في وقت واحد. ولكن كل كائن مفكر يعرف انه ميّت يوماً. إن طعم ومأساوية وبهجة هذا الوجود العابر تأتي من ان الفكر في داخله لا يجهل ابدا ان الحياة يمكن ان تنقطع في كل لحظة، حتى في حالة الفرح الشديد.

ان السلاح المطلق الذي يكبح الحرب الشاملة، يجعلها في الوقت ذاته ممكنة في كل لحظة، ومعقولة دائما. والادهى من ذلك هو ان استخدامها يمكن ان يبدو في حالات معينة امرا مربحا، وبالتالي معقولا. وهذا ما اردت بيانه، متأكدا من ان الكل والعدم يتجاوران في هذه الجدلية الجديدة التي دخلتها اللانهاية، كما يتجاور الافضل والأسوأ. وهذا ما يشكل حقل عمل رفيع من أجل الحرية عند المسؤولين؟.

اذا كان استخدام الذرة يأخذ في ظروف معينة طابعا معقولا ومغريا، فإن ذلك يعود قبل كل شيء الى ان رهان حرب محتملة سيكف عن ان يكون متناهيا، بسبب ظهور اللامتناهي. انه سيصبح شبه- لامتناه، وغير محدود في الزمان والمكان. ولنتفحص هذا المظهر الجديد لمعضلة الحرب، وهو مظهر جرى إغفاله غالبا، بسبب الحياء أو الخوف.

لقد افترضت في هذه الدراسة ان احد الاطراف المتقابلة لديه القدرة على «تفجير الكوكب الارضي»، وهذا افتراض وهمي، وسيظل كذلك على الدوام. فهناك باقون على قيد الحياة في جميع المجازر. ولن تكون وسائل الابادة جذرية. وحتى في اسوأ

الفرضيات، سيبقى شطر من البشرية قادرا على الاستمرار والتناسل. وهنا مكمن الخطر.

ذلك لان سقوط الجميع في العدم ستكون له افضلية الغاء جميع المشاكل. ان ما يخيفنا في الموت، هي الوحدة. فلو كان الجميع يموتون معا، لكان ذلك مقبولا، ولغدا الامر سحريا ولذيذا، طالما ان الموت قدر لا مهرب منه.

ولنفكر في حالة البقاء الجزئي للبشرية على قيد الحياة بعد تبادل الضربات الذرية والانفراج. يمكن للمرء ان يتساءل ما اذا كان هذا التناقص الكمي سيقدم المزايا للجنس البشري، الذي سيعود للانطلاق من الصفر، مع عدد من المذكرات، وبعض الكتب والمكتسبات القديمة، وينجو بذلك من الموت الرهيب الناتج عن ازدحام السكان، وفي النهاية عن الجوع. كما يمكن التساؤل عن المزايا التي يمكن ان تحصل عليها جماعة خاصة، واقصد بذلك شعبا ضخما فقيرا وجائعا ليس لديه ما يخسره، ولكنه سيكسب الكثير من زوال الشعوب الاصغر التي تملك الآن كل شيء.

لقد كنا نفترض حتى الآن، ان رهان الحرب كان متناهيا. فلقد كان الامر على هذا النحو منذ بدء البشرية. ومن المؤكد ان هتلر وستالين لم يأملا بإبادة خصومهما، لكن الرهان يمكن ان يكون منذ الآن رهانا لا متناهيا، أي ان يكون طرف ما سيد الارض والمياه والاجواء والتربية والاديان والضمائر، وان يكون بمقدوره تكييف بشرية جديدة دون معارضة.

ان هذا يمثل من الوجهة الدنيوية معادلا للانهاية. انه السراب الذي حدد الفاتحين وأسس الامبراطوريات: دنيوي- أبدي. ان الامبراطوريات لم تكن حتى الآن تدوم سوى زمن معين. والامبراطورية الوحيدة التي استمرت في الغرب وحاولت الانبعاث، هي الامبراطورية الرومانية التي حسبت ان باستطاعتها انشاء دولة واحدة، واقامة سلم في العالم المعروف آنذاك. ولكن بقي خارج هذا العالم الروماني «برابرة»، وكان بوسع الامبراطورية اخضاعهم، ولكن لم يكن باستطاعتها ازالتهم. لقد كان للامبراطورية حدود، لذا فانها لم تكن امبراطورية كونية شاملة تملك سلاحا مطلقا.

ونحن نشهد الآن ظهور امكانية نشوء امبراطورية كونية شاملة بعد نزاع ذري. ولن

يكون رهان الحرب المقبلة سيطرة جزئية أو سلما مسلحا، أو علاقة بين أمة ظافرة وأمم اخرى تحتفظ بوضعها كأمم ودول. ولكن الرهان سيتمثل في السيطرة على الكوكب الارضي. وسيكون للجماعة التي ستبقى بعد التدمير (والتي ستكون حائزة على السلاح المطلق فعلاً، وبدون خصم) أمل في تأسيس امبراطورية كونية شاملة الى الابد، وسيكون لديها امل في ان تكون «السيد الوحيد» للارض والبحر والفضاء.

ورغم ان هذا الامل اللامتناهي لا يمتلك سوى «فرصة محدودة للتحقيق»، فانه يبقى أملاً لا يمكن تجاهله. ويرجع ذلك الى السبب العميق الذي اكد عليه باسكال ويصادق عليه الحس المشترك: اذا كان هناك مكسب كبير يمكن تحقيقه، وليس عليّ سوى المراهنة بمبلغ زهيد، أي بجزء صغير جدا من ثروتي، فان باستطاعتي بل ومن واجبي ان اجازف بهذا القدر الزهيد، حتى لو كانت فرص النجاح محدودة. فاذا خسرت الرهان، فلن أخسر شيئا. واذا ربحت، فسأربح اللامتناهي.

لنطبق هذه الطريقة في التفكير، وهي طريقة الحس السليم، على القضية «النووية والامبراطورية»، وسنحدد بشكل مسبق الشروط التي يمكنها دفع امة ما، بصورة معقولة، الى المغامرة الكبرى.

ان من الضروري قبل كل شيء ان لا يرتد ضدها العدم اللامتناهي الذي سوف تستثيره، وان تتمكن من البقاء في جوهرها بعد الكارثة. وهذا يفترض ان تكون متحكمة برقعة شاسعة من الارض والبحر والجو، وان تستطيع التضحية تقريبا بجميع مواردها وتراثها، وان تمتلك كمية كبيرة من الحيوات البشرية، والاهم من ذلك كله هو ان يكون شعبها مستعدا، من حيث مفهومه للوجود، للتضحية بالموارد والتراث والحيوات البشرية.

ان هذا الشرط الاخير يقع في نطاق المعتقدات والقيم، ويعود الى الميتافيزيق أو الى الايمان. ولنشدد على هذه النقطة: ان الشرط المضمر والضروري لشن عمل متطرف هو ان يكون الجزء الاكبر من الشعب الذي سيأخذ قادته المبادرة الذرية يتمتع بقسط كبير من نكران الذات وازدراء الحياة، ويمتلك املا كبيرا في المستقبل بحيث يمكنه القبول بتضحية اجمالية.

اننا نفكر هنا بصورة قاسية. ولكن يبدو ان ظروفا يمكن ان تظهر، فتجعل هذا الجنون اقل حماقة مما هو عليه. ولنفترض مثلا ان فائض السكان يجعل الكوكب غير قابل للسكن تقريبا، وانه يتوجب الاختيار بين الموت جوعا والنهاية بالموت.

ولا بد ان نضيف هنا بأن الشعب، في عصرنا الذي يسمي نفسه ديموقراطيا، لن يؤخذ رأيه. وسيُتخذ القرار الاخير بصورة سريعة جدا من قبل جماعة صغيرة من المسؤولين، وسيكون رجل واحد ولا شك مخولا باتخاذ مثل هذا القرار. وهكذا فان المعركة النهائية بين الحياة والموت لهذا العدد الكبير من الناس سوف ينحصر في ضمير شخص واحد.

ان الجدل داخل هذا الضمير المنفرد، بالرغم من المظاهر الاستراتيجية أو السياسية، سيعود في نهاية الامر الى اختيار ميتافيزيقي. وسوف يتوقف كل شيء على القيمة التي يعلقها هذا الشخص على الوجود، وعلى الحياة البشرية، وعلى حكم الله، وعلى الآخرة. والواقع ان كل شيء سيتغير في قراره تبعا لكونه يعتبر اولا يعتبر الوجود القيمة المطلقة.

بعد ان درس الجنرال بوفر **عمليات الردع الثنائية**، قام بدراسة الحالات المعقدة **لعمليات الردع متعددة الاطراف**. وواضح ان ظهور «الشريك الثالث» يغير وجه الاشياء. ذلك لان هذا الطرف الثالث يدمر التوازن، نظرا لان بوسعه، بل ومن واجبه، ان يتحالف مع احدهما، او ان يتذبذب بين الواخد والاخر. ان الجنرال بوفر يدرس القضايا التي تطرحها المجابهة متعددة الاطراف: قضية التحالفات النووية، وقضية التكاثر النووي. لكنه يتحدث كاستراتيجي، ويسوق أفكاره دائما في أفق المتناهي، كما لو ان الشريك الثالث يمتلك اهدافا وميتافيزيقا من الطراز المتناهي، وكما لو ان الشريكين الاولين يملكان ذلك ايضا.

ان لعبة مالكي اللامتناهي يمكن ان تظل مدعاة للسلم حين تبقى ثنائية الجانب، شريطة أن يلتزم هذان اللاعبان بعدم السعي للحصول على المحال، وأن يقتنعا بأن هدف الرهان لا يساوي المجازفة.

ولكن لنفترض تدخل شريك ثالث لا يقبل هذه المسَلّمة الضمنية، إما لانه يرغب في

الموت، أو لانه يؤمن بوجود فرصة للحصول على اللانهاية. ان بوسع الشرطة ان تحمي رئيس دولة في جميع الحالات، باستثناء الحالة التي يقرر فيها القاتل التضحية بحياته. ان من المتعذر تأمين الحماية ضد رافاياك (١).

امكانية ظهور أسلحة ما زالت مجهولة:

لقد اعتبرت حتى الآن بأن ظهور السلاح النووي كان بداية عصر جديد، وانه يميز عصرا طويلا جدا. ولقد افترضت أن الذهن البشري الكسول لن يقوم بأي تقدم في فترة دراستي لهذه المسألة، كما افترضت ان ظهور السلاح النووي من شأنه ان يوقف القدرة الابتكارية والخبيثة. الا انه لا يمكن عملياً تقليص الاحتمال الى هذا الحد، ولا بد من تطبيق فكرة الاحتمال على الاستراتيجية النووية، والتساؤل عما اذا كان من المحتمل ان تكون الطاقة النووية في الغد المحرك الوحيد للحرب، والسلاح النهائي.

من كان يستطيع ان يتنبأ بذلك قبل الحرب العالمية الثانية؟ ولماذا لن تظهر اشكال قتال اخرى تبطل اهمية هذا النوع من الاسلحة؟

من المعروف ان العامل الرئيسي للنصر كان في جميع العصور يتمثل في امتلاك سلاح سري مجهول من العدو. وانه يمكن الضمان ضد الخوف وليس ضد المباغتة.

هل يمكن ان نتصور في الوقت الحاضر وجود اسلحة جديدة يجري اعدادها بصورة سرية؟

لقد كان الفضاء حتى الآن محايدا بعيد المنال. ورغم اجتياز الطائرات والصواريخ للسماء، فان السيادة على السماء لم تكن لأحد. بيد أنه سيكون ممكنا في الغد القريب ان يغدو الانسان سيدا للفضاء المحيط بالارض. ويمكن ان يظهر سيد للجو، كما كان ثمة سيد للارض أو سيد للبحار. ويتحدث الجنرال غامبيير بدقة عن امكانية ظهور هذه القدرة الشاملة فيقول: «ان اغضاب سيد الفضاء سيكون معناه الادراك بسرعة ان الموت بالجملة يحلق فوقك في كل حين على ارتفاع مئات الكيلومترات، وان كل من لا

---

(١) رافاياك (فرانسوا)، قاتل ملك فرنسا هنري الرابع (١٦١٠).

يكون مختبئا في اعماق البحر او تحت الجبال الجبارة لن ينجو منه»[1]. ومن الممكن منذ اليوم ان نتصور أن أي قمر اصطناعي ذري موجه عن بعد، سيكون تهديدا دائما، و«سيف ديموقليس» الحقيقي.

ان هذا التهديد، الذي ليس وهميا في عصر الاقمار الاصطناعية، يبقى محصورا في ميدان الاختبار الفيزيائي والمادة. ولكن من يقول لنا ان البيولوجيا لن تقدم سلاحاً ذا قدرة اخرى؟ منذ ان كفت الحرب عن ان تكون تحكيما الهيا خاضعا لمفاهيم وقواعد معينة، أصبح كل شكل من اشكال الابادة ممكنا. ومن يقول لنا ان الانسان لن يجد جراثيم تؤثر على الادمغة، وتولد حالات الهذيان، وتشل شطرا من شعب دون ان تضطر الى تدميره؟ ومن يستطيع ان يستبعد بشكل مطلق تطور علم ما وراء النفس، بحيث يصبح بالامكان التحكم بارادة الاشخاص عن بعد؟ افليس من الممكن ان يتجه الابتكار نحو صنع اسلحة يكون من شأنها شل الحريات دون تدمير الوعي أو الممتلكات؟ افلن يكون ذلك هو الشكل الاكثر مكرا والاقل انسانية من اشكال الحرب؟ افلن يكون السلاح المطلق مفضلا في هذه الحالة؟

مقارنة الثورة الجديدة مع الحرب الجديدة:

لقد اتجهنا في بعض مراحل هذه المحاولة، الى دراسة علاقات الثورة والحرب.

صحيح أن أزمتي المجتمع هاتين تختلطان وتتشابكان اكثر فأكثر، فكل ثورة يمكنها ان تعرض السلم العالمي للخطر، كما ان كل حرب تعرض لتقويض دولة المهزومين. ولكن ألا يوجد شكل جديد لظاهرة الثورة (القديمة جدا) يمكن ان يقارن مع ظاهرة الحرب الشاملة والردع التي قمنا بتحليلها؟ هذه هي المسألة الاخيرة التي نود طرحها.

لقد أدى بنا الامر بصورة حتمية الى هذا التساؤل عند كتابة هذا الفصل في شهر ايار (مايو) ١٩٦٨. ولقد ظهرت، وستظهر أيضا، كتب كثيرة حول هذه «الثورة» غير المحتملة، والتي تتسم بكونها غير مفهومة ولا تتطابق مع تفسيراتنا. وهذا مؤشر يدل على انه قد طرأ عامل جديد. وفي عالم متحفز، مستقبلي جدا، تبدو احداث أيار (مايو) ١٩٦٨

(١) راجع كتاب سيف ديموقليس، ص ٣٢٨.

وفق المفاهيم السابقة، غير ممكنة التوقع، ولا يمكن فهمها أو الامساك بها. ولا يزال تفسيرها غير مؤكد حتى عند افضل المحللين. ان هذه المباغتة للذكاء تشير الى ان عنصرا لا مثيل له في الماضي قد تدخل في التاريخ، وان ادواتنا لفهمه لم تصبح بعد جاهزة. لنتصور مراقبا نام في العام ١٩٤٤ ثم استيقظ بعد عشرين عاما، وأخذ ينظر الى الجيوش والمذاهب العسكرية دون ان يعرف شيئا عن الواقع الحراري-النووي، انه سيحتار هو ايضا.

ان ريمون أرون يوضح جيدا في دراسته المتبصرة حول «الثورة المفقودة»(١) الدراما النفسية لهذه الاحداث. لقد كانت نوعا من «لعبة كبيرة» ذات مظهر تعرضي هجومي، لكنها ذات هدف غير هجومي، اذ لم يكن احد ينوي المضي فيها حتى النهاية. وقد اثبت الحدث النهائي ذلك. وهذه السمة تقيم وجه الشبه بين هذه المجابهة ومجابهة الدول النووية. ففي الحالتين، يُستخدم التهديد مع التفكير بعدم استخدام السلاح، والاكتفاء بالردع. ان هذا الامر يدعو الى التفكير بالقدرة الجديدة المفيدة، المهدئة المؤمّنة للاستقرار، التي تملكها الحالة النفسية الناجمة عن وجود اللامتناهي.

ولكن ما هو معادل اللامتناهي المطلق في هذه المعركة المدرسية، الاجتماعية، السياسية؟

يبدو لي أن فكر هربرت ماركوز يساعد في العثور على هذا المعادل. ولن يكون من قبيل المصادفة اذا ما سُلطت جميع اضواء الاحداث الراهنة على هذا المؤلف، المجهول تقريبا لدى الجمهور الواسع. ان السلاح اللامتناهي ليس هو الثورة وتغيير النظام والبنية، كما كانت الحال في ١٧٨٩، ١٨٤٨، ١٨٧١، ١٩١٧، بل انه شيء آخر تماما لم يكتسب اسما بعد. ولنقل، مستخدمين المصطلحات القديمة، انه فوضى مطلقة، والانفلات التام للمكبوتات، «ومبدأ اللذة» المطبق الى ابعد مدى بدون عنف، بدون عدوانية دامية، وبدون تاناتوس. ويمكن القول انه اذا اطلقنا على الموت اسم تاناتوس(٢)،

---

(١) منشورات فايار، ١٩٦٨.

(٢) تاناتوس Thanatos اله الموت عند الاغريق.

واشرنا الى الانفلات المطلق للغريزة الجنسية باسم «إيروس»[١] الملتبس لكن السهل الاستعمال، فان «الثورة الجديدة» ستتلخص في احلال إله اللذة مكان اله موت الانسان الآخر، ووضع إيروس مكان تاناتوس. ان مجددي القرن الماضي، امثال ماركس وفرويد، الذين توقفوا قبل الحد الأقصى في الظلمات ذاتها مع المحافظين و«البورجوازيين» انهم جميعا في الواقع «متناهو النزعة»، وهم جميعا يقرون نظاماً ما. ان انصار الثورات القديمة هؤلاء، والذين يمكن تسميتهم الآن «تقليديين» (شأن الجيوش والحزوب قبل العام ١٩٤٥)، لم يعرفوا أبداً ان اللامتناهي سيدخل لعبة الانتفاضة منذ ١٩٦٨.

من المؤكد أنه في كل ثورة كانت ثمة دعوة الى العدالة الكلية، وحاجة الى اللامتناهي. ويكفي ان نعيد قراءة روبسبيير أو سان- جوست للتحقق من ذلك. ولكن ذلك كان هرموناً وتحريضاً. وبقيت الآلية كلاسيكية، تقليدية: القوة، واحتلال الباستيلات[٢] والارهاب، والانقلابات العسكرية... الخ. لكن القضية انعكست من الآن فصاعدا. وما كان محرِّضا طفيفا اصبح يشغل المجال كله. ان السلاح المستخدم، وهذه الدعوة شبه السحرية الى الحرية المطلقة، وهذا الفعل لمجرد الفعل بدون هدف أو برنامج، والميل الى العدم، كل هذا مختلف جدا عن السلاح (القديم) للانتفاضات

لا شك في ان ايار (مايو) ١٩٦٨ شهد عددا من المجابهات والمتاريس، لكن هذه الرموز كانت تخفي وراءها خطر الشلل الكلي، والفوضى المطلقة، والدعوة الى كلية جديدة غير محددة. ان احلال اللون الاسود (الذي هو كالأبيض رمز للانهاية) محل اللون الاحمر (الذي ليس سوى مكمل للازرق) كان يعني ذلك جيدا. ان الراية الحمراء ما تزال راية المتناهي المحدد. إنها كالراية البورجوازية، مصنوعة من تسويات. لكن الر اية السوداء شمس لا متناهية. انها توحي بحد لا يمكن الارتقاء الى ابعد منه. وهل هناك نور بعد الابيض؟ وهل هناك ليل بعد الاسود؟

---

(١) ايروس Eros: اله الحب عند الاغريق.

(٢) نسبة الى سجن الباستيل الذي احتله الثوار الفرنسيون وهدموه في العام ١٧٨٩. والمقصود هنا بكلمة «الباستيلات» سجون السلطة القمعية وحصونها ومعاقلها.

(المعربان)

ان لا متناهي العدم شيء وهمي، فوضوي، الا اذا افضى، بفعل انعكاسي، الى لا متناهي الكائن البشري. لذلك فان ادخال عامل لا متناه في حساب أو في عمل، هو في الاساس المراهنة من اجل الكائن الذي لا يستطيع ان لا ينتصر، والذي هو منتصر فعلا داخل نفيه ذاته.

لقد ابتكر الطلبة سلاحا نفسيا يفترض وجود اللامتناهي، وما ان قاموا بذلك حتى تحقق الصدى الفوري الشامل، نظرا لشدة تعب عصرنا من المتناهيات. ان اسطورة الاضراب العام «اللامتناهي» تقريبا، وبدء تنفيذ هذا الاضراب في شهر أيار، قد أخضعنا لأسطورة لا متناهية بشكل اكبر، هي اسطورة الانحلال الكلي الذي يحمل السعادة للجميع، كما أخضعنا لهذه المفارقة المستحيلة «العنف المطلق المفضي الى السلم» التي اقترح ماركوز نظريتها.

ولكن لنوقف هذا الاستطراد، ولننعم النظر في تشابهات حركة أيار (مايو) ١٩٦٨ مع الظاهرة الذرية والردع.

ان تعدد الدول والقنابل (الذرية)، يجعل كل أمة صغيرة، وإن كانت متناهية، تملك وسيلة لا متناهية للتدمير. كذلك فان كل جزيئة من الجسم الاجتماعي، بل وكل فرد، كل عضو من اعضاء المجتمع السياسي أو الديني، يملك في النفي الجذري سلاحا لا متناهي القدرة، قادرا على شل القوى. وفي شهر ايار المشهور، كان طالب واحد رافض بشكل مطلق، يستطيع هز جامعة، ودولة. ومن هنا يمكن القول انه اذا كانت امة صغيرة تملك القنبلة، فان باستطاعتها بسهولة زعزعة الكون بأسره.

من المؤكد ان هذه ليست سوى تشابهات، لان التأثير اللامتناهي، الذي يفترض ان يؤدي الى تفتيت الجسم الاجتماعي كله الى ذرات لا يبدو ممكن التحقيق. ولم يكن هذا التأثير في أيار (مايو) ١٩٦٨ سوى لعبة حسنة التنظيم. ولكن هنا يذهب التفكير الى احداث كوبا، والى حرب السويس(١). ولسوف نرى ايضا على نطاق الامم كثيرا من حالات الدراما النفسية. واذا كان القارىء قد تابعني، فإنه سيجد ان للردع تأثيرا ايجابياً في استبعاد

---

(١) العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦.

الفواجع «الدراما» الحقيقية لصالح «الدراما النفسية»، مع وجود امكانية جدية دائمة (ويا للأسف) للانتقال من الدراما النفسية الى الدراما الحقيقية بكل فواجعها. ولكن يبدو ان كل شخص بات يعرف الحد الذي لم يعد قادرا على تجاوزه.

ومن جهة اخرى، فان ثورة اللامتناهي تعتمد اسلوب العتبات المتعاقبة وفق قوانين التصعيد الجدلي المتبادل، في حين ان القنبلة الذرية يمكن ان تعمل بالمباغتة أو بتهديد فجائي دون سابق انذار. ومن غير المحتمل ان يصل التصعيد ذروة الحدة، لان هذا التصعيد مرئي، علني، مراقب من قبل الرأي العام،الامر الذي يجعله يكبح نفسه بنفسه.

لكننا نتساءل ما هو الصاعق المفجّر، ما هي عملية القدح التي يمكنها ان تدفع الى العمل ثورة لا نهائية؟ انها لا تزال حتى الآن في مرحلة الدراما النفسية، انها تلعب. هل هناك عنصر يمكن ان يستثير الدراما الحقيقية؟ ان الاستشارة ممكنة بظهور الساحر، ولقد رأينا آلية ذلك مع هتلر.

لقد بينا في مستهل هذه الدراسة ان هتلر كان يستخدم اسلحة نفسية تعتمد على الاقناع والردع، ويستطيع استخدامها اي شخص يمتلك موهبة تحريك الجماهير. ان رجلا من هذا الطراز يستطيع- في بعض اوقات الحبوط النفسي- اثارة شعب بأسره. وكان هتلر يقول: «كلما كانت الحشود اكبر عددا، كانت قيادتها اسهل»... «انني أبعث فيها الاضطراب، واقودها الى الشك في نفسها».

اذا كان باستطاعة الضعيف في المستقبل التهديد بالحد الاقصى، واذا كان بوسع أمة صغيرة شل العالم، واذا كانت جماعة صغيرة مصممة في امة ما قادرة على شل دولة، فان وجه الارض يمكن ان يتغير بأسرع مما نظن.

ولكن في أي اتجاه سيكون هذا التغيير؟ ليس بالضرورة نحو الأسوأ، بل يمكن ان يكون ايضا نحو الافضل. إن الافضل مجاور للاسوأ في هذه الجدلية الجديدة للانهاية، المبنية على قاعدة «**كل شيء أو لا شيء**». وهذا ما يسمح لنا بالتفكير بأن المطلق هو المقصود تحت فكرة العدم.

اننا نعرف جيدا هذا النوع من العمل الذي يُحدث بالعدوى تأثيرات لا يمكن حسبانها، رغم ان الاسباب التي تدفع الى القيام به تبدو قليلة الاهمية. إنه نوع من العمل الروحاني. ان المستقبل البشري يخرج عن حدود معارفنا، ولكن هناك من الدلائل ما يشير الى ان البشرية في الوقت الحاضر تمضي بخطى سريعة نحو مأزق. ولنْ يكون امامها عند الوصول الى المأزق سوى حلين: **الموت، أو قيام حالة اعلى بعد اجتياز عتبة.**

ان هذه التأملات تحملنا الى القضايا النهائية. ولا يمكن الصمت عنها زمنا اطول.

حول الميتاستراتيجية:

في العام ١٩٣٣ كان الفيلسوف هنري بيرغسون يطرح على نفسه اسئلة مخيفة أمام تسارع ألعلم والتقنيات. ولربما كان السؤال التالي هو السؤال الذي طرحه على نفسه واضع قصة سقوط آدم، او قصة برج بابل؟: «في السياق الذي يمضي به العلم، يقترب اليوم الذي سيكون فيه احد الخصوم، بسبب سر يحتفظ به كاحتياط، ممتلكا الوسيلة لازالة الخصم الآخر. وقد لا يبقى أثر للمهزوم على وجه الارض». وفي مقطع آخر يقول برغسون في صدد الآلام الأبدية لشخص بريء: «آه كلا! الأفضل قبول ان لا يكون أي شيء موجوداً، الأفضل ترك الكوكب الأرضي ينفجر» (١).

كل هذا قيل قبل تموز ١٩٤٥، وقبل آذار ١٩٥٤، وقبل هيروشيما، وقبل ظهور القنبلة الهيدروجينية. وما جرى تصوره بصفته ممكنا في المستقبل البعيد اصبح واقعيا يتعذر كبحه. ولا شك في ان الطاقة الذرية تتضمن افاقا سلمية يمكنها تطوير الحضارة وتنظيم الارض. وقد بدئ بالعمل في هذا الاتجاه الخيّر منذ العام ١٩٥٥. ولكن ما لم يشاهد حتى الآن، هو ظهور ابتكار مضاد، تقني أو حقوقي، يوقف تقدم السلاح المطلق وكبح انتشاره. وهذا ما يذكّرنا بالفكرة القديمة قدم العالم، والقائلة **بأن العلم اقدر على التدمير منه على البناء، وعلى التفريق منه على التوحيد، وان ثمرة المعرفة مرة، ليس بسبب المعرفة بل بسبب الانسان.**

لقد كان الحكماء الذين صاغوا هذا القانون الكئيب مفكرين دينيين، وانبياء،

---

(١) «منبعا الاخلاق والدين» ص ٧٥ و٣١٨

ومفسرين للتاريخ المأخوذ في كليته، وأعماقه، ولجه. وكانوا يرون في آن واحد مستوى الجسم البشري (أي مستوى التدميرات)، ومستوى الروح (أي مستوى الابتكارات)، والمستوى المأساوي للاختيار بين الخير والشر، بين الكائن والعدم.

ان هذا المستوى الثالث مستبعد في الاستراتيجية الراهنة بسبب نوع من العجز، والخوف، والسياسة، أو بالرغبة المحمودة في طمأنة الطرف الآخر وطمأنة الذات.

لقد اعتدنا هذا الاستبعاد للشيء الجوهري في الميدان العقلاني. فنحن نعرف مثلاً انه لا ينبغي ابدا التحدث في المدرسة عن الالم، والشر، والموت. وبعد حرب ١٩٤٠ فقط نالت الوجودية الحق في الافصاح عن حقائق الوجود الأساسية هذه، والتي كان ينصح بالصمت حولها. واستطاعت الوجودية ذلك بشرط أن يجري اظهارها دون ربطها بسر روحاني ما.

ولدى العودة الى الاستراتيجية التي تشكل مجال بحثنا، يحق لنا ان نتساءل ما إذا كان بوسعها ان تتشكل كعلم، مع اغفالها القضايا والحقائق الميتافيزيقية والاخلاقية.

حتى الآن لم يكن على الاستراتيجية ان تهتم بالمسلّمات المسبقة. لقد كان باستطاعتها التكوّن دون اللجوء الى ميتاستراتيجية. ذلك لان الجميع كانوا موافقين على مسلمات معينة، مثل: ان المحارب لا يمكن أن يعمل ضد ذاته. وان الجنود لا ينتحرون بالجملة. وان عدم الانضباط يدمر الجيش. وان موت البعض يضمن بقاء الآخرين على قيد الحياة. وان الوجود أفضل من العدم. ومع ان المحاربين كانوا يملكون دائما الوسيلة لتدمير أو لتشويه أنفسهم، فانه لا يسجل بالاجمال سوى عدد قليل جدا من حوادث الانتحار أو التشويه في الجيوش، نظرا لقوة غريزة الحياة، ولقوة الوهم بأن الآخر يموت وليس أنا.

لقد كانت الحرب على الدوام تقريبا حربا مقدسة، نظرا لوضعها في خدمة دين، أو لاهوت، أو سر روحاني، أو ايديولوجية. ولكن نظرا لان ذات المبادئ الفلسفية والاخلاقية حول الوجود، والحياة، والطبيعة البشرية، بل وحتى حول الشرف، كانت مقبولة من قبل الجانبين المتصارعين، فان الاستراتيجية المثقلة بميتافيزيقية مضمرة كان يمكنها الاستغناء عن التساؤل حول الميتافيزيقا وعن القيام باختيار ميتافيزيقي.

ولا تزال الاستراتيجية تتقدم من هذا المنطلق. ولا تزال تفترض بعض المسلمات التي لا تخضع للتقادم ولا تقبل الاعتراض. وهي: ان الحياة جيدة، وان الموت الجماعي يمكن تلافيه، وان الحرب تنتهي بالانتصار أو بالعودة الى الحالة السابقة.

وامام ظهور المطلق، لم تغيّر الاستراتيجية كثيرا نمطها في التفكير. انها ولا شك تتحدث عن السلاح «الاستثنائي جدا» و«الذي لا سابق له في التاريخ». وهي تتصور عواقب اندلاع الحرب، بل ان باستطاعتها ان تتوقع ببرود الامكانات الرهيبة جدا بالنسبة إلى الجنس البشري اثناء الحرب وبعدها(١). ولكن الجميع يقبلون الافكار القائلة: «ان الانسان الاجتماعي لا يمكن ان يرغب في تدمير ذاته، كما لا يمكن ان يرغب في تدمير عدوه، اذا كان تدمير العدو يستتبع تدمير الذات». وهذا ما يمكن التعبير عنه كما يلي: «ان مفهوم الانتحار المتبادل بين الامم أمر مستبعد».

اذا اردنا التفكير في هذه المسلّمة الضمنية، لاحظنا انها تتضمن فكرة وجود فرق في الطبيعة (لا في الدرجة) بين الانسان الفردي والانسان الاجتماعي.

ويعرف الجميع ان هناك بالنسبة الى الانسان الفرد ظروفا قاسية، وآلاماً يستحيل احتمالها، وحالات يأس بالغة الحدة، وان مثل هذه العوامل تدفع الفرد وتجبره على تدمير ذاته- اذا لم تمنعه من ذلك فكرة واجب مطلق.

والمعروف ايضا، وان كان الناس لا يجرؤون على قول ذلك، ان اليائس لا يحكم فقط على وجوده الذاتي، بل يمكن ان يحكم ايضا على الوجود كله. وبعبارة اخرى نقول: حين يقوم كائن واع منطقي مع ذاته بادانة الوجود، فإنه يدينه بصورة شاملة. واذا امكنه ذلك، فانه سيجر الى العدم أولئك الذين لا يمتلكون شجاعته وصفاء بصيرته. واذا كان هذا اليائس ذو البصيرة الصافية يمتلك القدرة، فانه قد يقدم على «تفجير الكوكب» كما يقول بير عسون. ولنجرؤ على القول: ان هذا العمل سيكون قابلاً للتبرير. وذلك لأنه إذا

(١) لا أدري أين قرأت هذه العبارة الثقيلة، ولكن الصحيحة: «تجري المحاولة لتقدير ما ستكون عليه، في حالة الضربات الذرية المتبادلة على مناطق مأهولة، النسبة المئوية للخسائر وعواقبها على بقاء الحضارة... ان الاتساع الكبير للدمار يمكن ان يستتبع ليس فقط نهاية المراجع الايديولوجية ـ الدينية والاجتماعية ـ الاقتصادية التي تحملها حضارة ما. بل المكتسبات العلمية والتقنية، القادرة وحدها على ان تدفع سيطرة الانسان على المادة».

كانت الحياة حقا مهزلة من الوهم والعذاب، او حتى اذا كانت مرحلة مؤقتة لطيفة بين عدمين، فإن بالامكان امتداح من يلغيها بدون ألم بالنسبة اليه والى عدد كبير من الناس. ولن يكون عمله في الحقيقة سوى تنفيذ الفعل الذي علّمه ضمنا العديد من اساتذة التفكير الذين لم تكن لديهم الشجاعة المخيفة اللازمة للمضي حتى نهاية منطقهم؟

سيقال لي، هنا ايضا، ان الانسان الاجتماعي كائن عاقل، واذا كان الانسان الفرد مجنونا: فان الجماعات البشرية لا تيأس.

ان هذا يفترض مسبقا ان مأساة الانسان تحل عقدتها وتنفرج، عند الانتقال من الحياة الفردية الى الحياة الاجتماعية، كما انه يفترض ان الانسان الجماعي يمتلك مزايا الحكمة التي تنقص الانسان الفرد والمنعزل. إن هذه الافكار تؤجج بصورة خفية فكرة التقدم. فالتقدم العلمي تقدم جماعي وتراكمي. وهو يعوض باستمراريته ما ينقص عدم استمرارية الحيوات البشرية. ونظرا لان تقدم العلوم يبدو لنا كنموذج لجميع حالات التقدم، فاننا نتصور ان الانسان الجماعي يغير طبيعته. ونعود الى الموضوع الذي يشغلنا، فأقول ان الاستراتيجية الذرية تهمل بسبب منهجي الفرضية المتعلقة بامكانية حصول فعل جنوني مميت.

ويكفي ان نتذكر المقولة الاساسية لهذه التأملات، لنلاحظ ان العمل اليائس يمكن ان يظهر بشكل لا يمت الى اللاعقلانية اطلاقا- منذ ان يدخل اللامتناهي ميدان اللعبة.

لقد تحدثنا عن الإغراء الذي يتعرض له قائد شعب ما امام امكانية الظفر بالامبراطورية الكونية الشاملة، والى الابد. وهو اغراء لا يستلزم أي انتحار، افراديا كان ام جماعيا. ولكن إغراء اليأس سيكون اكثر احتمالاً حين سيصبح شعب مالك للذرة مهددا بالعبودية المادية أو الروحية، وينتشر بين صفوفه شعار «الموت أولى». أفلن يكون الانتحار في هذه الحالة أرفع شجاعة وأسمى تعقل؟ افلم تقر البشرية دائما بان الموت افضل من فقدان اسباب الحياة؟ ولنتصور العكس، فهو اكثر احتمالا في الحالة الراهنة للرأي العام.

حين نراقب الحالة الراهنة للامم، ونراقب في الامم حالة الضمائر، نلاحظ في الواقع ان الرابطة الاجتماعية تتدنى. ان أمما كانت تبدو منيعة لا يمكن تدميرها، تفقد

حريتها. ومنذ العام ١٩٤٠، اعتدنا على فكرة ان امة قوية، مستقرة، واثقة بنفسها، يمكن ان تنهار، وقد رأينا أمما تشطب من خريطة العالم. ونحن نعرف ان كل أمة قابلة للعطب اكثر بكثير مما يُظن، وان عظمتها وهيبتها ترتكزان على قشة هشة. كما ان المؤسسات الاكثر استقرارا، والمعتقدات الاكثر شيوعا، والاديان ذاتها، معرضة للتهديد. ويمكننا التفكير وفق المنطق التالي: ان الانسان الذي يجابه العدم، ويؤمن بأن الحياة بلا معنى، أو يؤمن بأن العالم المجرد من الانسانية والحضارية والحيوية إثر تبادل الضربات الذرية سيقدم فرصة ضئيلة لوجود كريم، انّ هذا الانسان يمكن ان يفقد الحد الادنى من الثقة الغريزية الذي تغدو الحياة بدونه غير ممكنة، وفي مثل هذه الحالة يصبح الموت افضل من الحياة، ويتجه المرء نحو تفضيل اللجوء الى العدم، بل وجر الآخرين اليه.

ومن الممكن ايضا ان تفقد فكرة «التمسك بالحياة» الحافز والزخم اللذين احتفظت بهما حتى الآن. هذه الفكرة التي كانت تؤدي الى تشبث الاحياء بالحياة في افظع الظروف (حتى على طوف «ميدوز»[1] او في معسكرات الاعتقال). وسيقال لي ان المصابين بمرض عضال يتعلقون بأصغر أمل. لكن هؤلاء أفراد. ويمكننا أن نتساءل ماذا سيحدث لو ان البشرية في مجملها غدت على يقين بأنها يمكن ان تهلك بين لحظة واخرى، لان قمرا صناعيا معاديا (مثلا) يدور حول الارض، مثل سيف ديموقليس؟ هل يمكن احتمال ذلك زمنا طويلا؟ أفلا يحتمل ان نشهد عند شعوب معينة، بعضها اكثر بدائية من غيرها، والبعض الآخر اشد سأما، تخمّر الفكرة القائلة بأن من الافضل الخلاص من الحياة نهائيا وإلى الابد؟

كل هذا اوردناه لنقول ان قضايا الاستراتيجية ستفضي الى الميتافيزيقا.

ذلك لان الفعل النووي سيتوقف على مفهوم ميتافيزيقي وليس فقط على مفهوم

---

(١) يشير الكاتب هنا الى غرق المركب ميدوز Medeuse في العام ١٨١٦ على مقربة من شاطىء افريقيا الغربي. فلقد نجا من الغرق ١٤٢ شخصا استطاعوا الركوب على ظهر طوف، وبقوا في البحر ١٢ يوما يصارعون الموت ويتشبثون بالحياة، واخيرا شاهد مركب شراعي صغير الطوف، وتم انقاذ الاحياء الباقين على متنه وعددهم ١٥ شخصا في حالة الاحتضار. ولقد خلّد «جيريكو» Géricault هذه الحادثة بلوحة رسمها في العام ١٨١٩ وهي الآن في متحف اللوفر بباريس.

(المعربان)

سياسي. وهذا ما يدفعني الى الحديث عن **ميتاستراتيجية**. ان القضايا العليا المتعلقة بمعنى الحياة، والاختيار بين **الكل واللاشيء** لن تكون بعد الآن عرضية، أو محدودة بشكل يسمح باهمالها، أو محصورة في ميدان الضمائر والمعتقدات الفردية، بل انها ستهم الاستراتيجية ذاتها.

لقد كان بوسعكم حتى الآن الاهتمام بمعرفة القدرة المعنوية للخصم، وبتحديد القيمة التي يعطيها لمسألة التضحية بالحيوات الفردية. فاذا كان خصمكم، الطيار أو قائد الطوربيد، يقبل القيام بعملية انتحارية، فإن تكتيككم في مواجهته سيكون مختلفا. وسيختلف تكتيككم أيضا اذا كان الخصم من النوع الذي يقبل الجريمة الفردية، وذبح الجرحى والاسرى. ولكن هذه ليست سوى حالات خاصة ولا علاقة لها بالادارة العامة للحرب.

قد اصبح من المهم الآن معرفة ما اذا كان بوسع البشرية ان تفكر في الانتحار، خاصة وان لديها الوسائل لذلك. لقد قال «ألبير كامو» أن قضية الانتحار هي في النهاية القضية الفلسفية والخلقية الوحيدة التي تواجه بصورة خفية كل ضمير. ان هذه القضية التي غدت منذ الآن قضية جماعية، تظل في قلب **الميتاستراتيجية**، التي لا يجري الحديث عنها، ولكن التي لا يمكن ان يكف عن التفكير فيها الاستراتيجيون الذين يتعاملون مع الاستراتيجية بعمق.

ان هذه القضايا الميتافيزيقية وقضايا **الميتاسياسة**، **والميتاستراتيجية**، لم يعد بالامكان إخفاؤها وراء صمت الحياء البورجوازي، والصحافة اللامبالية، والاذاعة المحمية بالرقابة.

وان انتفاضة الطلبة في عدة عواصم، وعلى التخصيص في جامعة السوربون كرمز، تقدم أيضا هذا المعنى الذي لا يلاحظه الكثيرون، لانه اساسي اكثر مما ينبغي، وصحيح لدرجة تجعل من المتعذر الحديث عنه. ان حقيقة الحقيقي تختبئ وراء الصمت.

لقد دهش البعض لان الشباب اظهروا كل هذا العنف المدمر، الذي بدا وكأن هدفه العدم وليس المستقبل.

ولكن اذا كنتم تعلّمون هؤلاء الشباب المنطقيين مع أنفسهم، ان الحياة عبثية لا

معنى لها ولا غاية، وان بطلان المعتقدات كلها ممكن مثل صحتها كلها، وان بالامكان تفسيرها بواسطة علم الاجتماع أو التحليل النفسي، فلماذا تصابون بالدهشة اذا ما استخلص الفتيان من ذلك النتائج الجدية؟

لم تعد الميتافيزيقا والاخلاق بعد الآن معزولة داخل الضمائر الفردية. ولم تعد متوقفة على الاديان. إنها تغادر سر الضمائر والمعابد، وتندرج في التجربة، في السياسة والقضايا الدولية وحسابات الاستراتيجية. لقد هبط المطلق الى الارض عبر طريق الارهاب. وستحل البديهية مكان الايمان. ان المعقول واجب الاداء، تحت طائلة الموت، **خطر الموت**، هاتان الكلمتان مكتوبتان (بصورة غير مرئية) في كل مكان.

ان هناك خطر الموت، ولكن هناك ايضا الامل بالحياة.

ان أكبر النجاحات متلازمة مع اكبر الاخطار. واللحظة التي يتعرض فيها كل شيء للضياع تتطابق احيانا مع اللحظة التي يغدو فيها كل شيء منقذا. انها سنّة الحياة، مغامرة البشر كما في تاريخ الحضارات، وحتى تاريخ الأديان.

وهل كانت هناك مخاطرة يمكن مقارنتها مع المخاطرة التي سيتعرض لها الجنس البشري، المفكر، المحب؟

هناك من يهمس (وهذا ولا شك ما يفسر اللامبالاة الشاملة) بأن البشرية ستعرف المحن، ولكنها لن تندثر. أهي حكمة الساعة الاخيرة؟ أهو حدث طارىء أم إغاثة غير محتملة؟ لست ادري.

وكل ما أدريه، هو ان لحظة الاختيار بين الاسوأ والافضل ستأتي عما قريب: وأن الاستراتيجية هي الميدان الذي سيتم فيه هذا الاختيار. لذلك فإن الاستراتيجية تهم كل شخص.

تذييل

مقتطفات من احدى رسائل الجنرال ويغان الى جان غيتون حول الاحتمال في الحرب

ان كلاوزفيتز محق حين يقول «ان عيني القائد دائما في الضباب»، ذلك لان اليقين المطلق في نجاح عمل ما في الحرب لا وجود له. واعتقد ان الالماني يخطئ حين يقول ان على القائد ان «يراهن». وقد يكون الرهان، الذي هو بالاجمال عمل انسان مقامر، مقبولا بالنسبة الى عقلية الفرد الالماني اكثر مما هو مقبول بالنسبة الى عقلية الفرد الفرنسي، واعتقد ان هذا شيء ممكن جدا.

لقد سمعت الماريشال فوش يصف لودندورف بأنه «مقامر».

ولكن في حالة انعدام اليقين يظهر الاحتمال. وهذا الشعور يولد من الدراسة المستقصية، ومن مقارنة القوى التي تتضمن مقارنة عديد القوى، ووسائطها المادية، والتشكيلات التي تتمفصل فيها هذه المعطيات وتتوزع، والحالة المادية والمعنوية للقوات، ومزاج قائدها . . . ويرجع ذلك الى ان كل هذه العناصر والمعطيات الخاصة بالعدو تكون غير معروفة بدقة. الامر الذي يترك قسطا من الشك، يضاف اليه بالنسبة الى القائد الاعلى للجيوش الكبيرة اضطرار هذا القائد لاتخاذ قراره في وقت مبكر. وكلما كبر حجم الجيش الموضوع تحت تصرف القائد، ازدادت ضرورة التبكير في اتخاذ القرار، لان تدابير التنفيذ تتطلب في الجيش الكبير وقتاً أطول. وبالاضافة الى ذلك فان طول المهلة التي تفصل في هذه الحالة القرار عن التنفيذ تمنح الخصم الوقت اللازم لتغيير ترتيباته، وهذا سبب جديد لعدم اليقين.

من هنا ليس في الحرب بديهيات، وكل مبادرة تستتبع المخاطرة. وهذا ما جعل نابليون يقول «ان القادة الذين يبادرون الى الهجوم في الحرب نادرون».

ان جميع هذه العناصر التي ترتكز عليها مبادرة ما، يزنها رجل واحد هو القائد. ولذهنه المتردد أو المدفوع الى المبادرة نصيب كبير في التقويم الذي يكوّنه عن كل عنصر من

هذه العناصر. فالذهن المتردد يميل الى تضخيم الصعوبات، في حين يميل الذهن المبادر الى تصغيرها. ويتجه تفكير المتردد بشكل خاص نحو ما يجب ان يخشاه لدى عدوه، بينما يفكر الذهن المبادر قبل كل شيء في عمله هو، دون ان يهمل ما سيقوم به الخصم. والمتردد بطيء في اتخاذ القرار، مما يتيح لخصمه فرصة سبقه وضربه. اما المبادر فانه يقرر بصورة أسرع ويفرض بالتالي مبادرته.

فالمبادر هو الذي يطرح المسألة، ويمسك الورقة الرابحة الرئيسة، التي ستؤمن له الكسب اذا كان قد زان الامور بصورة صحيحة.

وبمقدار ما استطيع ان احكم، تبعا لتجربتي في الحرب العالمية الاولى، بوسعي القول ان قائدي[1] لم يشن أي عمل كان يعتبره «مجازفة». وليس بالامكان القول ان احتمالا ملائما للعمل الذي كان يفكر فيه كان يتحول بالنسبة اليه الى يقين. ويرجع ذلك الى انه مهما توغلنا بصورة حميمة في فكر شخص يثق بنا، فنحن لا نعرف من هذا الفكر الا ما يقوله لنا، او ما يجسده باوامره واعماله وردود فعله. ولكن بامكاني مع ذلك القول بأن اقواله واعماله واوامره وتصحيحاته خلال العمل كانت دائما اعمال قائد موقن بكسب جولته.

سيقال انها مسألة مزاج. نعم بالتأكيد، فلقد كان لخسارة فوش المعنوية تأثير هائل حقا. لكنها مسألة ذكاء ايضا. وعندما كان فوش يزن العوامل المؤيدة لقراره والعوامل المعارضة، لم يكن يستبعد العوامل المعارضة بصفتها غير محتملة، بل كان يتخذ ترتيباته ليتفادى هذا المتوقع، وليتفادى ايضا اللامتوقع الذي يمكن ان يحصل دائما في الحرب. ذلك لان رجل العمل هذا كان مفكرا يرى بان العمل لا يمنع التفكير، كما يؤمن بأن التفكير لا يؤخر العمل. كان ذلك توازنا رائعا يتمتع به هذا القائد الفذ.

واضيف في الختام، وهذا شيء رئيسي، ان العنصر الجوهري في حساب فوش للاحتمالات، سواء كان هذا العنصر من نمط مادي أو معنوي، كان يحتل في حكمه المرتبة الاولى، وكان ترتيب القضايا التي ينبغي حلها يتشكل دفعة واحدة في ذهنه الذي كان يضع كل شيء في مكانه.

---

(١) يقصد المارشال فوش

وبالاجمال، فان هذا القائد (فوش)، الذي قال عنه الجهلة المعجبون به انه كان يتقضّ منخفض الرأس مهاجما المستحيل ومحققا اياه، كان يضع في حسابه الممكن والمستحيل. لكن احساسه بالامكانات كان يحمله على العمل، ولهذا فقد كان قائدا عظيما جدا. ولهذا ايضا كان يثير دهشة اولئك الذين لم يكن الاحساس بالامكانات عندهم سوى الاحساس باللاإمكانات، والذين وصفوا فوش احيانا بأنه مجنون.

إن لكل شيء حسابه في الحرب. لكن الحساب الاكبر هو للقائد. وما اكثر الاشياء التي ينبغي ان اقولها ايضا، والتي لها حساب، وحساب كبير: الايمان بالله، وبمصائر الوطن، وبحب الجنود لقائدهم.

يجب ان لا ننسى ان فوش علّم تلاميذه قائلا: «حين تحين ساعة القرارات الواجب اتخاذها، والتضحيات التي ينبغي تقديمها، اين يمكن العثور على صنّاع هذه الانجازات الخطرة دائما، إن لم يكن بين النفوس السامية المتعطشة الى تحمل المسؤوليات؟ ان هذه النفوس مشبعة بارادة النصر. في هذه الارادة،وفي الرؤية الواضحة للوسائل المؤدية الى النصر، تجد النفوس السامية الدفع اللازم للقيام بالواجبات الاكثر رهبة دون تردد، ومواجهة الصعوبات والتضحيات برباطة جأش، والمجازفة بكل شيء حتى بشرفها».. انها لسطور جديرة بالتأمل الطويل. لقد كان المارشال واحدا من صناع الانجازات. ولا يستطيع الضباط كافة ان يكونوا كذلك، إذ ليس لديهم جميعا العبقرية، فالعبقرية لحسن الحظ وقف على بعضهم فقط، ولكن بالامكان تأهيلهم جميعا على طرائق التفكير الصحيحة، وهذا هو ما تفعلونه عند تعليمهم اسلوب التفكير. وكلهم صالحون لتلقي التعليم المتعلق بتكوين «الشخصية».

في معارك الحياة أو في معارك الحرب، نجد أن الانسان بكل ما يحمله من طبع وشخصية، هو الذي سيستثمر هذه الموارد، ولن يستخلص منها ـ مهما كانت غنية ـ الا ما تتيحه له صفاته الشخصية ان يستخلص.

وأعود الى سؤالكم الاولي: «هل يمكن اعطاء قواعد ونصائح لتمييز ما هو الاكثر احتمالا؟» فأقول: انه يمكن، ويجب وضع طرائق للتفكير والمحاكمة، وتعلّم تمييز الشيء الجوهري، وباختصار تكوين حكم، وشخصية! وهذا شيء لا يمكن تجاهله، وهو في

الوقت نفسه عمل كبير. انه يمكن وينبغي اعطاء نصائح، ومنها هذه النصيحة الرئيسية: لا ينبغي ابدا بناء قرار على فرضية، على نية تنسب الى العدو بصورة اعتباطية.

أتوقف هذه المرة، وأعيد قراءة ما كتبت، وأقول في نفسي، هذا غير متماسك الى حد ما، وسيء لعرض. ما من دراسة عديمة النفع، وليس هناك جهد تعليمي عقيم. ولكن سيكون هناك دائما قادة واشخاص متعلمون وغير مؤثرين من طراز «كوغليون». وليس هذا القول من عندي، بل إنه مأخوذ عن نابليون.

ان كل عمل يسبقه قرار. لكن هذا القرار يمكن ان يؤخذ على مهل اذا كان العمل المطلوب مستقبلياً (بعد ساعات، أو بضعة ايام، أو بضعة اسابيع. . .). وقد يكون من الضروري اتخاذ القرار بشكل فوري اذا كان العمل الذي سيعقبه عاجلاً يستهدف مثلاً الرد على حدث غير متوقع. وصحة الحكم هي اساس القرار الصحيح في الحالتين.

لكن هذا القرار هو في الحالة الاولى في متناول كل رجل صحيح الحكم، ويمتلك الوقت لمقارنة حكمه مع حكم شخص يثق فيه. في حين يكون القائد في الحالة الثانية وحيدا مع ذاته، لذا فان عليه ان يفكر بعمق كبير في مختلف القضايا التي يمكن ان تواجهه، وان تتحول المبادىء الموجهة لقراره الى ارتكاسات تعمل فورياً. وهذا امر لا يقع الا في أحوال نادرة جداً.

لقد كان المارشال فوش يقول لي: «ربما كنت تفهمني، ولكني أود ان يفهمني الآخرون».

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
مقدمة المؤلف	٧
هتلر والثورة والحرب	١٧
فن التفكير وإدارة الحرب	٣٧
الفكر الهيغي وإدارة الحرب	٦٥
فلسفة الردع في العصر النووي	٩٣
تذييل	١٤٥

شهد العالم في النصف الثاني من القرن العشرين طفرة استراتيجية واسعة بسبب ظهور الردع النووي. ولم تعد الاستراتيجية تكتفي بدراسة الحرب كعمل مادي عنيف، تشترك فيه القوات المسلحة لطرفين متنازعين، بل أصبحت تهتم أيضاً بدراسة الحرب كحدث يستمد قوته من الفكر، ويسعى كل طرف مشترك فيه إلى التأثير على فكر الطرف الآخر ومعتقداته ومفاهيمه.

ويطرح هذا الكتاب العلاقة الوثيقة القائمة بين الفكر والحرب، وازدياد هذه العلاقة في العصر النووي إلى حد لم تعرفه البشرية من قبل، وانعكاس هذا الازدياد على الاستراتيجية المعاصرة، التي لا تختلف عن استراتيجية عصور ما قبل الذرة في درجتها فحسب، بل تختلف عنها في طبيعتها أيضاً.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير،
ت ٨٠٧٩٠٠ ، برقياً: موكيالي،
بيروت، ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس LE DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧